



طائرات تنورة ضيف

الدار المصرية اللبنانية

جم العذري
مهند العربي



الحبُّ العُزِّيُّ
عند العرب

توزيع: الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون: ٣٩٢٣٥٢٥-٣٩٣٦٧٤٣
فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة
رقم الإيداع: ١٨٨٩ / ١٩٩٩
الترقيم الدولي: 7-489-270-977
طبع: بدار نوبار للطباعة - شبرا
تليفون: ٤٣٠٩٦٠٨ فاكس: ٤٣٠٠٦٤٣
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى: رمضان ١٤١٩ هـ - يناير ١٩٩٩ م
تصميم الغلاف: هنادى سليط

مكتبة الإسكندرية
القاهرة

١١٤٨٥

892.708

٥ 3543

مضى في ح

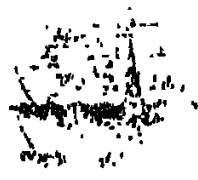
الحب العذري

١٩٦٥

عند العرب

دكتور شوقي ضيف

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التسجيل	٣٩٩٥٧
رقم التوزيع	٨٩٢.٧٠٨٠٣٥٤٣
رقم التوزيع	مضى في ح



Library of the National Library of Alexandria

توزيع

دار النشر اللبنانية

المحتويات

	الصفحة
تقديم	٧
الحب	٩
الحب العذرى	١٩
مَجْنُون لَيْلَى	٢٨
جَمِيل وَبُثَيْنَةَ	٤٩
قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ وَلُبْنَى	٧٠
عُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ وَعَقْفَاءَ	٩٠
كُثَيْبٍ وَعُزَّةَ	٩٨
تَوْبَةَ وَلَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ	١٠٦
الصُّمَّةَ وَرِيًّا	١١٤
مَالِكٍ وَظَرِيفَةَ	١١٨
ابن أبي عمَّارِ النَّاسِكِ وَسَلَّامَةَ	١٢٢
ذو الرُّمَّةِ وَمِيَّةَ	١٢٦
العَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ وَقَوْزَ	١٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

دفعنى إلى جمع هذا القصص المتصل بأحاديث الحب والصبابة من كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب العربى أنى وجدت الشباب يقبلون على قراءة قصص الحب إقبالا شديدا، غير مفرقين فى هذا الإقبال بين الجيد منه الذى يسمو بالأحاسيس والمشاعر والردئ الذى تطفى فيه الغرائز وتجمح الأهواء والعواطف فى غير تردد ولا خجل ولا استحياء.

وشبابنا معذور فى قراءته للنوع الأخير، بحكم رغبته فى الاطلاع، ولما فيه من غرابة وشدوذ كالشدوذ الذى يقرءونه فى قصص الجرائم والجنائيات. وهم بذلك يقرءونه هوا وقطعا لبعض أوقات الفراغ لا التماسا لمثل أعلى فى الحب ولا لغذاء روحى فيه يرتفع بهم عن صغائر الحياة. وإيماننا منى بحاجتهم إلى ما يقدم هذا الغذاء الرفيع لهم فى يسر وبساطة رأيت أن أعرض عليهم طائفة من قصص الحب العُدري عند أسلافنا الذى يتحول فى بعض جوانبه إلى ضرب من التصوف المجرد من قيود المادة والحس، وهو حب حقيقى عاشه العرب فى عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم الحب ومهما اصطلوا من نيرانه واحتملوا من خطوبه، حتى إنهم ليموتون شهداء فى سبيله، وفيه

تحتفظ الفتاة بجلاها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

وقد صاغ أسلافنا هذا القصص العذرى النقى العفيف فى لغة ناصعة أروع ما يكون النصوع، ليس فيها أى إسفاف، بل فيها القوة والجزالة والمتانة والرصانة وهذا الجمال اللفظى الذى يحدث لذة محققة فى نفس القارئ. وأحاديثه لا تجرى نثرا خالصا ولا شعرا خالصا، بل تجمع بين الفنين فتمتع الأسماع حين تصغى إليها كما تمتع القلوب والأفئدة. وإنى لأرجو مخلصا أن يجد فيها شباب القصاصين بيننا أمثلة يحتذونها فى أساليبهم الثرية، كما يجد فيها شباب الشعراء أمثلة ونماذج أخرى تلهمهم التعمق فى تصوير دقائق الحب وعواطفه وأهوائه دون التورط فى غرائز الجسد وأدرانته.

وإنى لشديد الأمل فى أن يغرى هذا القصص ومثله الخيرة العليا بعض شبابنا إلى تمثله والمعيشة فيه معيشة تدفعهم إلى إعادة كتابته فى قصص حديث، لا يقل عنه إمتاعا ولا جمالا، قصص يعتمد اعتمادا على عناصر الحب العذرى، مجسدا لها فى معانٍ وخواطر، وأحيانا فى ضروب من الحوار، لم تكن تخطر جميعا لأسلافنا على بال. والله أسأل الهدى والتوفيق وأن يهيب لنا جميعا من أمرنا رشدا.

القاهرة فى ١ يناير ١٩٩٩

شوقى ضيف

الحب

طبيعة الحب

لأفلاطون في الحب محاورة مشهورة تسمى المأدبة، أجرى فيها الحوار بين سقراط وبعض معاصريه من الفلاسفة والأطباء والشعراء والسوفسطائيين ورجال السياسة. والمخاطبة في مجموعها تصور مذهب سقراط في الحب، وإن عبّر كل متحاور عن وجهة نظره، وطبع كلامه بطوابع شخصيته الخاصة.

وقد بدأ أول المتحاورين، فقال: إن الحب أقدم الآلهة وأفضلها، فهو الذي يبعث في الإنسان الإحساس بالشرف وينمّي فيه الإيثار وروح التضحية. وفرّق ثاني المتحاورين بين نوعين من الحب: نوع دنيّ وضع يلبي النزعات الجنسية، وهو حب النساء والحب الشاذ للغلمان، ونوع نبيل شريف يخلو خلوا تاما من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الحب النقي البرئ ذلك الحب الذي يرتفع عن الصغائر ويتنزه عن الدنيا والذي يكسب صاحبه المعرفة والحكمة والفضيلة.

وواضح أن هذا الحب الروحي السامي هو الحب الذي ينشأ بين الأستاذ وتلميذه أو مردييه، وإن كان الباحثون قديما وحديثا لم يتنبّهوا إلى ذلك، وظنوا ظنا فائلا أن المخاطبة ترفع من الحب الشاذ، حب الشاب للشاب، مع أنها تندد في غير موضع وبصراحة صريحة بهذا الحب، وتشن عليه حربا شعواء. وفي رأينا أن المخاطبة جميعها دفاع عن سقراط وتعلق شباب أثينا بأرائه وكلفهم بحواره الذي كان يملاً قلوبهم له حبا وحنانا، حتى زعموا أنه يفسدهم وأنه يزكّري قوانين الخلق والعرف والدين، وحوكم محاكمة ظالمة أودت به وقضت على حياته. وقد ختمت المخاطبة بدفاع قوى حار عنه، ألقاه تلميذه ألقبيادس، وقد

صور فيه الحب العارم بينه وبين تلاميذه، وهو حب نقى برئى ممعن فى النقاء والبراءة، إذ كان سقراط نبيل النفس صافى الطبع كريم الخلق وكان الشباب يفتنون به فتوناً.

ويطنب ثالث المتحاورين - وكان طبيياً - فى التفرقة بين الحب الروحى الشريف والحب الحسى الوضعى، ويجعل من هذه التفرقة مبدأ عاماً لا يطبق فى الحياة الإنسانية وحدها، بل يطبق فى كل الأعمال والفنون، ويقول إن الحب أصل من أصول الكون، ويخرج به من عالم الحس المحدود إلى عالم العقل الواسع، ويجعله منبع كل سعادة وكل خير. أما رابع المتحاورين وهو أريستوفان، الشاعر الكوميدي المشهور فيسوق حديثه فى قصة خيالية فكهة، إذ يزعم أن الكائنات البشرية لم تكن فى أصل فطرتها كما هى اليوم: ذكرا وأنثى، بل كانت ذكرا، وأنثى، وخنثى تجمع بين خصائص النوعين، وكان كل فرد من هذه الأنواع الثلاثة مدورا على هيئة كرة، وله أربع أيد وأربع أرجل يمشى عليها جميعا، وله أربع آذان ووجهان، وهكذا تزدوج فيه بقية الأعضاء. وركب الغرور هذه الكائنات، فثارت فى وجه الآلهة، وغضب زيس الإله الأكبر، فشطرت كل فرد فيها شطرين عقابا ونكالا لها، ومضت هذه الأشرطة يبحث كل منها عن شطره رغبة فى الاتحاد به كما كان الشأن فى أصل النشأة، وهذا هو سبب الحب، فهو فى حقيقته شوق وتعطش إلى استرجاع السعادة المفقودة. ويتحدث المتحاور الخامس - وكان سوفسطائيا - فيصطنع ألفاظ السوفسطائيين الخلابية، ويقول إن غاية الحب الجمال، ويضفى عليها أروع الخصال والفضائل، ويجعل زينته العفة وكبح النفس عن الشهوات، وثمرته الأناج والألفة والصدقة.

ويتكلم سقراط، فتشرئب إليه الأعناق وتصغى الآذان والقلوب، ويستهل كلامه بالثناء على ما سمعه من المتحاورين، ثم يسألهم - على طريقتة - عن بعض ما عرضوا له من وجوه القول، ولا يلبث أن يروى لهم حديثا عن الحب سمعه من

امرأة تسمى ديوتيميا، وهنا نرى أفلاطون يتدخل، فيصف على لسان هذه المرأة الحب الأفلاطوني الذي ينسب إليه، وهو حب علوى أشبه ما يكون بتجربة المتصوفة عندنا، إذ يرتبط بنظريته المعروفة في المثل وما كان يعتقد من أن أفراد كل نوع في الموجودات الحسية والمدركات العقلية قد فاض عن حقيقة مثالية كلية مجردة، لها وجودها المطلق، وكل فرد من أفرادها يقترّب منها وبتعد بنسبة ما يستوفى من خصاها وكمالها.

وعلى هذا الأساس ترجع النفوس الإنسانية إلى نفس عليا واحدة، هي مثالها المطلق الذي انفصلت عنه، وهي لا تزال تحن إليه، فإذا رأت ظلاله في شخص أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحب. وهو عند أفلاطون في درجات، أدناها الحب الجسدى الذى يتيح للإنسان شيئا من الخلود عن طريق ذريته، إذ يحمل أولاده محله، فيخلد وجوده الفسائى إلى حين. ويلي ذلك الحب الجنسى حب روحى، يعشق فيه المحب نفس المحبوب، وهو أرفع من حب الجسد وأكثر خلودا، إذ يلقن فيه المحب محبوه خصال الفضيلة والحكمة، تلك الخصال التى يغرسها المحبوب بدوره فى معشوقه، وبذلك تكون لهذا الحب الروحى ذرية كذرية الحب الجسدى المادى، إلا أنها أكثر منها قيمة وجمالا. ولا نرتاب فى أن أفلاطون إنما يريد بهذا الحب الروحى العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وهو يجعلهم محبوبين له، يشيعون أفكاره وتعاليمه فى تلاميذهم أو معشوقيه، فتصبح له بذلك ذرية يفوق جمالها جمال ذرية الحب الجسدى، إذ شتان بين ذرية الدم والجسد وذرية الروح والعلاقة الروحية.

وفوق هذا الحب بدرجة أو درجات الحب الأفلاطونى المثالى الذى يرقى فيه العقل فوق العالم الحسى ويرتفع عن العالم الروحى المقيد بالأشخاص والناس إلى عالم الجمال المطلق أو عالم المثل. وهذا الحب عند أفلاطون هو غاية الغايات للفيلسوف أو محب الحكمة، وهو الغاية التى ليس وراءها غاية، والفيلسوف لا

يصل إلى هذه الغاية إلا بعد مجاهدات يعانيها، إذ لا بد له أن يتجاوز الفرد أو الشخص الذى يتذكر بجسده أو بروحه عالم المثال إلى هذا العالم نفسه، فيتأمل مثله الأعلى فيه، ويحبه محبة تملك عليه نفسه، حتى لا يستطيع عنه حولا، أو حتى يستغرق فيه استغراقا خالصا، وهو استغراق شبيه باستغراق الصوفية عندنا فى حب الذات الإلهية وكمالها المطلق.

وتنتهى المحاوره بحديث ألقبيادس عن سقراط، وهو يعترف فى حديثه بأن لسانه يقصر عن تصوير ما أصاب به الشباب الأثينى من فتون بحكمته المضئيه المشرقة، وهى حكمة قوامها العقل فى أبدع صورته والخير فى أكرم مظاهره والحب كأروع ما يكون الحب بين الأستاذ وتلاميذه. وليس ذلك فحسب، فقد كان مثالا للعفة والشجاعة وأبلى بلاء مشكورا فى بعض حروب قومه. ومن أجل ذلك كله صبا إليه الشباب فى أثينا وكلفوا به أشد الكلف، وكبرت كلمة يقولها خصومه إنه أفسدهم، إذ كان نموذجا أعلى للمواطن الصالح والفيلسوف الحق. وهذا إنما هو سطور أخيره فى الدفاع عن سقراط. والمحاوره كلها فى رأينا دفاع عنه وعن تعلق تلاميذه المشروع به، وإن كان أفلاطون قد ضمنها الحديث عن الحب الجسدى الوضع وعن حبه الأفلاطونى الرفيع.

ومهما يكن فقد صورت المأدبة الحب بجميع صورته المادية والمعنوية تصويرا رائعا، ولا نبالغ إذا قلنا إن جُل ما قاله مفكرو العرب ومتفلسفتهم فى الحب نجده صدى واضحا لما دار فى هذه المأدبة وما قاله أفلاطون فى «الجمهورية» عن صورته الثلاثة: الجسدى والروحي والمثالى، وأنه يحدث لمشاكله بين اثنين فى أصل الوجود البشرى. ويؤثر أن جماعة من المتكلمين وأهل الآراء والنحل اجتمعوا يوما بمجلس يحيى بن خالد البرمكى وزير هرون الرشيد، فطلب إليهم أن يتحدثوا فى الحب وطبيعته وسببه، فقال على بن الهيثم: الحب ثمرة المشاكلة، وقال أحد الخوارج: إنه لا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين، وقال

على بن منصور الشيعي: إنه لا يكون إلا من ناحية المطابقة والجانسة في التركيب، وقال أحد شيوخ المعتزلة: إنه نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة.

ويدور الزمن دورة وملتقى بمحمد بن داود الظاهري الذي ألف كتابا في الحب باسم «الزهرة» ونراه فيه يروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها أئتلف، وما تناكر منها اختلف"، ثم ينقل عن بعض المتفلسفة اليونانيين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها نصفين، فجعل في كل جسد نصفاً، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه نصفه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة. والصلة واضحة بين هذه الفكرة وما جاء على لسان أريستوفان في المأدبة.

ويدور الزمن دورة أخرى، فملتقى بابن سينا الفيلسوف المعروف ونراه يفرد للعشق رسالة، يقول فيها إنه نزوح إلى الكمال المنبعث عن الكمال المحض، ويجعله نوعين: جسدي ينشأ عن القوة الشهوانية، وهو الذي يستعان به على حفظ النوع، وعقلي ينشأ من القوة النطقية لغرض القرب من المعشوق الأول. وهذا الحب الثاني يطابق الحب الأفلاطوني مطابقة بيّنة.

وتمضي مع الزمن، وإذا ابن حزم الأندلسي يؤلف كتابه «طوق الحمامة في الألفة والألاف» وفيه يقول إن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عنصرها الرفيع. وابن حزم يردد فكرة أفلاطون في المثل، فالنفوس الإنسانية ترجع في أصل نشأتها إلى نفس عليا واحدة توزعت أجزاءها في نفوس الناس، ويقول إن هذه الأجزاء تتصل فيكون الحب وتتفصل فيكون البغض. فسيرُ الحب والبغض في المخلوقات إنما هو في الاتصال والانفصال بين النفوس، فالشكل إنما يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن. وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافي، والله عز وجل يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾

فجعل سبحانه وتعالى علة سكون الزوج إلى زوجته أنها منه. ولو كانت علة الحب جمال الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن شخص القبيح في الصورة، وهو خلاف الواقع، ولو كانت العلة للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يوافق في الشيم وهو ما لا يشهد به أيضا الواقع. فوجب أن يكون الحب شيئا في ذات النفس. فإن قيل إن هذا يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصا بادلته حبا بحب، ولحن نرى كثيرا من المحبوبين ينفرون من محبيهم، فالقياس إذن غير مطرد، ويبدو أن نفس الذى ينفرد من محبه ولا يقبل عليه إنما يعده عنه بعض الأعراض الطارئة التى تكتنفها من الطبائع الأرضية، فلم تحس الصلة بينها وبين الجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى جسدها، أما المحب فنفسه متخلصة من هذه الأعراض عامة بمكان من كان يشركها فى المجاورة فى أصل الفطرة، وهى لا تزال تبحث عنه، حتى تجده، فتجذب إليه كالمغناطيس والحديد وكالنار والحجر، فحبه إنما هو تجديد حب قديم فى النشأة الأولى، ولعل من الطريف أن نجد هذه الفكرة عند بعض العذريين إذ يقول:

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفى المهدي
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنقضى العهد

ويلاحظ ابن حزم أن النفس إذا ميزت فى المحبوب شطرها الذى تبحث عنه ثبتت فيه، أما إذا لم تميز فيه هذا الشطر فإن حبه لا يتجاوز الصورة الجسدية وهو حينئذ يكون حب لذة ومتاع، وهو ليس الحب السامى المصفى الذى تجد فيه النفس كماها المنشود وإنما هو الحب الجسدى الذى تنقاد فيه لداع غامض يصدر عن غرائزها.

وللحب عند العرب منازل ومراتب متعددة، وأول مراتبه الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقاءه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمنى الدائم لرؤية

المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب تعلقاً لا يستطيع المحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط في الحب ويغلب أن يلتقى فيه المحب والمحبوب، ثم التئيم وهو استعباد المحبوب للمحب، يقال تئمته حبا، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب المحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب. وتتكرر مع مراتب الحب كلمات مثل الولع وهو شدة التعلق بالمحبوب، والشجن وهو الهَم والكرب، واللوعة وهي الألم، وتباريح الحب وهي شدائده، والجوى وهو كتمانها والضيق به، والكمد وهو الحزن الشديد، والوجد وهو الصباية وشدة الحب، والوله وهو التحير من شدة الوجد، والكلف وهو الاستغراق في الحب، إلى غير ذلك...

وإذا كان العرب قد شغلوا بالحب والحديث عنه كما شغل اليونان الأقدمون فإن الغربيين المحدثين قد شغلوا به وبالبحث فيه وفي طبيعته وأنواعه شغلا متصلا، ومن خير من بحثوا ذلك كله في القرن التاسع عشر ستندال الفرنسي، والحب في رأيه أربعة أنواع: حب استلطاقي أشبه ما يكون بالألفة والصدافة، وحب مغرور يرضى به المحب غروره وكبرياءه، وحب جسدي ينبع من الغرائز الجنسية، وحب عاطفي عنيف، وهو حب العشاق المتيمين المشهورين في التاريخ.

وعرض ستندال لنشأة الحب ونموه، فجعله يرقى في سبع مراتب، أولها مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب، وثانيتها مرتبة الشوق إليه، وثالثتها مرتبة الأمل، أما الرابعة فهي المرتبة التي ينشأ فيها الحب، إذ يحس صاحبه إحساس اللذة والألم فيه. وحينئذ يأخذ الحب في النمو، فيصعد بالمحب إلى المرتبة الخامسة، وهي المرتبة التي يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى في الجمال والسعادة به، بحيث لا يدانيه إنسان آخر في صفاته ومحاسنه. وعبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حين قال لها الحجاج : والله ما أنت كما قال فيك كثير، فقالت له:

إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها، ومن أجل ذلك قال بعض المحبين:

ووالله ما أدري أزيدت ملاحهً وحسنا على النسوان أم ليس لى عقل

وينتقل المحب عند استدال من هذه المرتبة الخامسة إلى المرتبة السادسة، وهى التى يصطلى فيها نيران القلق والخوف والشك المحرقة. ولا تلبث هذه المرتبة أن تسلمه إلى المرتبة السابعة، وهى أقصى مراتب الحب وأبعدها غاية، وهى المرتبة التى يعنف فيها الحب، ويجمع بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا.

وفى هذا القرن، قرن علم النفس والتحليل النفسى كثرت أبحاث النفسيين فى الحب وعلاقته بالغريزة الجنسية والعقل الباطن الذى تعصف به عواصف لا حصر لها من الغرائز والرغائب الجسدية والانفعالات الشعورية والعقلية. ويقول بعض الباحثين إن الحب المحرف بالغريزة الجسدية، أو هو تسام بها، ويقول آخرون إنه استعادة لذكريات ماضية، بينما يزعم غير واحد أن المحب إنما يحب ذاته من خلال محبوبة، فهو لا يرى فيه إلا نفسه، وكأنه مرآة صافية له، فيحلم به وهو إنما يحلم بنفسه، ولكل محب طريقته فى الحلم. ومن خلال هذا الحلم لا من خلال الحقائق المجردة تغنى المحبون بمن يحبونهم ونظموا فيهم أشعارهم الغرامية، التى تبعثها تلك القوة السحرية العجيبة قوة الحب التى تعمى المحب عن رؤية أى نقص فى محبوبة، بل التى تجعله يطفى عليه جميع الخصال والمخاسن، حتى وكأنه نسج من أشعة القمر، ولا يزال يعيش فى هذا الخيال أو هذا الحلم منتشيا بشرا به الصفو الهنى.

عوارض الحب

متى برّح الحب بصاحبه أصبح إنسانا غير عادى، فهو يعيش فى عالم خاص به لا يرى فيه إلا محبوبة وخياله، وكأنما تضيق فى عينه آفاق الكون، فتصبح أفقا

محدودا، بل رقعة محدودة يملؤها المحبوب والفكر فيه والتأمل في جماله، ولعل ذلك ما يجعل المحب ينطوى على نفسه، فمحبوبه كل همه وفكره وشغله، وهو لا يأنس إلا إليه وإلى ما يذيقه من رحيق حبه وحريقه.

ويدفع ذلك المحب إلى أن يعيش في عزلة عن مجتمعه، فقد ملأ عليه محبوبه كل وقته، وأصبح فتنة فاتنة له، لا يستطيع انصرافا عنها ولا تخلصا منها، وكأنه - كما يقول بعض النفسيين - يرى فيه نفسه وذاته أو يرى فيه الصورة التي كونتها غرائزه وعواطفه وانفعالاته التي اختزنها في عقله الباطن على طول الزمن، فهو يرى فيه الماضي والحاضر والوهم والحقيقة والخيال والواقع. ومن كل ذلك تتألف صورة المحبوب الجميلة الرائعة التي تستأثر به خالبة للبه، مالكة عليه كل شيء من أمره.

وكان المحبوب يجمع للمحب كل ما انفع به وتأثر فيما مضى من حنان أم أو شفقة أب أو عطف أخت ومن جمال وجه أو لون شعر أو طابع حسن أو نظرة ساحرة أو نغمة صوت وغير ذلك مما يستقر في عقله الباطن، فإذا ما صادف شيئا من ذلك في شخص انصب في نفسه هذا التيار العجيب من الحب، أو قل نفذ هذا التيار من عقله الباطن إلى عقله الظاهر، فتسلط عليه هذا الشخص، أو قل سلط عليه هو ذكرياته وقوى خياله، فإذا هو يستحيل في نظره إلى كائن شعري فاتن أخاذ. وهذا هو سر الحب عند بعض النفسيين وسر رابطة السحرية التي توثق الأواصر بين المحب ومحبوبه، فإذا هو تكفيه منه النظرة والإيماء العابرة، أما الوصل فهو كمال الأمنية ومنتهى الأمل والفرح الذي لا شائبة معه والصفاء الذي لا كدر فيه. وكل فراق وهجر لا يزيد المحب إلا ولوعا بمحبوبه، وكذلك كل عدل ولوم، وكم شكوا المحبون من العذال والرقباء والوشاة، وإنهم ليضنون ويسقمون ويطول بهم السهر والسهاد ويتعذبون عذابا ممضا، وهم منتشون لا يفيقون، سعداء بكل ما يألمون، أو كما قال الشاعر:

هو الحُبُّ فاسلم بالحشًا ما الهوى سهْلُ فما اختاره مُضْنَى به وله عقلُ
وعِشْ خالِيًا فالحُبُّ أوْلُهُ عَنَا وأوسطه سُقْمٌ وآخره قَتْلُ

وربما انتهى الحب بصاحبه إلى حال من الهيام تشبه حال المجانين، كما نعرف عن مجنون ليلى فى القديم، إذ يصيب المحب ذهول كذهول المجانين يأتى من استغراقه فى محبوه وملازمته لفكرة واحدة هى فكرة حبه وثبوتها عندها لا يفارقها، بالضبط كما يحدث لبعض المجانين حين يلزمون فكرة، لا يتحولون عنها ولا ينصرفون.

وإذا بلغ المحب هذه الدرجة من الفتون والجنون بمحبوه لم يعد من الممكن أن يخلص من حبه وحلمه به، أما إذا كان حبه معتدلا فمن الممكن أن يخلص منه ويصحو من سكرته. ويحدث ذلك كثيرا إذ انتهى الحب بزواج، إذ يفتح الزواج - فى أحوال كثيرة - عينى المحب المعصوبتين، ويزيل ما عليهما من غشاوة سحرية، فيستيقظ من حلمه ويندم على ما فرط من أمره. وهو لا يندم سريعا، بل يأخذ فى الندم رويدا رويدا وقد تراءت له خيبة مُرَّة. ولذلك كان الناس يخافون من زواج الحب، وهو مهما يكن أجهل وأبقى من زواج المصلحة، وقد يظل المحب على حبه بعد الزواج، وحينئذ يكون الزواج مثاليا، بل يكون حلما ذهبيا سعيدا ليس وراءه ولا مثله حلم.

الحب العذرى

بنو عُدرة والحب

بنو عُدرة إحدى قبائل قضاة الكثيرة التي كانت تنتشر في شمالى الحجاز وتمتد عشائرها وبطونها من المدينة إلى الشام، وكانوا يسكنون وادى القرى، وهو واد طويل بين تيماء وخيبر فيه قرى منثورة وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل :

ولقد أجزّ الدليل في وادى القُرَى نشوان بين مزارعٍ ونخيلٍ

وفى هذا الوادى الممرع الخصب كان بنو عُدرة يتنقلون بخيامهم، وقد رزقهم الله من الثمرات ما جعل حياتهم رغدة هائلة بالقياس إلى قبائل الصحراء الذين كانوا يقاسون غير قليل من الشظف، حين تجذب مراعيهم، فتموت القطعان ويهلك الناس.

لم تكن حياة بنى عُدرة قاسية، ولا كان فيها هذا الجذب المهلك، إنما كان فيها خصب وغماء هياً لشيء من الفراغ كما هياً لشيء من الاستقرار وأن تجرى الحياة هادئة، فليس فيها منازعات القبائل على المراعى وما صحب هذه المنازعات من حروب دائرة لا تنقطع.

وكان لذلك أثره فيما خلفت بنو عُدرة من شعر، فإننا لا نجد عندها شعر الحماسة والفخر والزهو الذى كان منتشرًا بين قبائل لُجد، وإنما نجد عندها نمطًا آخر من شعر غنائى قوامه التعبير عن آلام النفس إزاء الحب وكأنهم لما فرغوا لأنفسهم أو هيات لهم حياتهم أن يفرغوا لأنفسهم أخذوا يغنونها هذا الضرب من الشعر الوجدانى.

وليس معنى ذلك أننا لا نجد شعر الحب عند غير بنى عذرة، إنما معناه أنهم أكثروا منه وأن حياتهم أعطتهم الفرصة لكي يغنوا أنفسهم، أما بعد ذلك فإن العرب تغنوا بالحب، تغنت به قبائلهم منذ العصر الجاهلى ولكنها لم تجعله كل همها، فقد كانت الغارات تشغلها، وكان الأخذ بالتأثر مدار حياتها، فنظمت فى الفخر والمدح والهجاء.

أما بنو عذرة فانطوا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم الذاتية ما جعلهم يشتهرون بين القبائل العربية بهذا الغزل الصافى الرقيق، وكان للإسلام أثره فى نحو هذا الغزل، بما فرض على الناس من أن يعضوا أبصارهم ولا يأتوا بفاحشة ولا ينتهكوا الحرمات.

ولم يقف تأثير مثالية الإسلام عند بنى عذرة، فقد أخذت هذه المثالية تطبع شعر البدو فى نجد بطوايع واضحة من البراءة والطهارة والتسامى، فلم نعد نقرأ شعر الحب الإباحى الذى كان يردده امرؤ القيس وغيره من شعراء نجد فى الجاهلية، إنما أخذنا نقرأ شعرا عفيفا، فيه نبل، وفيه هذا الحزن الذى يصدر عن نفس ملتاعة تخاف الله فيما تأتى من قول وفعل.

وهيات لهذا الحزن أيضا بيئة الصحراء وما يخيم عليها من سكون وصمت فى لياليها المقمرة الشاحبة، ولذلك لم يكن من الغريب أن تستهل القصيدة العربية حتى فى الجاهلية بالبكاء على الأطلال والديار، فطبيعة البيئة الصحراوية تبعث على الشجوا والحزن والألم.

الصحراء والإسلام إذن هما اللذان أعدا لظهور هذا الغزل العفيف الحزين وما طوى فيه من حب نبيل شريف، وهو غزل يعبر عن أسى العواطف التى يفيض بها القلب الإنسانى. غزل نحس فيه لدع الحرمان وأن الرجل يتهيب الاقتراب من المرأة، فهى كائن ملائكى تحول قدسيته دون لمسه، وحتى هى إن

وصلته لا يزال يشعر شعورا عميقاً بالألم واليأس، بل قد يفضى به حبه إلى الجنون أو إلى الموت، وهو لا يأتي ذلك وحده، بل تأتيه المرأة أيضا سعيدة قريرة العين.

وتستفيض الأخبار بذلك عن بنى عذرة وغيرهم من الأعراب في هذا العصر الإسلامى عصر مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس بن ذريح ، سئل رجل من عذرة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا ، وقال رجل لعرّوة بن حزام العذرى: يا هذا بالله أصبح ما يقال عنكم : أنكم أرق الناس قلوبا ؟ قال: نعم والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت، ما لهم داء إلا الحب . وسئلت امرأة عذرية بها هوى يدنيها من الموت: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت : فينا تعفف ، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفنى آجالنا. وقيل لأعرابي: ما كنت صانعا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها وأستر منها ما لا يحبه الله، قيل ، فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أكِلُّ قلبي إلى حبها ولا أصير إلى نقض عهدها. وقيل لأعرابي آخر وقد زوجت عشيقته وأهلها يجهزونها لزوجها : أيسرك لقاءها ؟ قال: نعم والذى أمتعني بها وأشقاني بطلبها، قيل: فما كنت صانعا؟ قال: كنت أطيع الحب فى لقائها والتمتع بحديثها وأعصى الشيطان فى إثها وما يوحى من نزواته، ثم قال: وهل أفسد عشقَ عشرِ سنوات بما يبقى عاره فى ساعة تنفد لذتها وتبقى تبعثها، إنى إذن للئيم، لم ينبجنى أصل كريم. وقيل لبثينة: هذا جميل يتعذب فى حبك فهل عندك شئ تنفسين به وجده؟ فقالت: ما عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الآخرة أو أزوره وهو ميت تحت الثرى.

وهذا الحب العفيف الطاهر انداحت منه موجة إلى البيئات المتحضرة فى الحجاز، فإن أهل مكة والمدينة شاع عندهم حقا غزل صريح غنته الحضارة

والترف اللذنان غرقوا فيهما، وهو غزل ثرثار لا يخجل ولا يتألم إلا قليلا، ولكن مع شيوع هذا الغزل نجد أسرابا من غزل عفيف، تتغلغل في تضاعيف هذا الغزل الصريح، فإذا هناك من يشقون بالحب ويدوقون لذته الحلوة المؤلمة. وكانت أهم جماعة غزاها هذا الغزل العذرى هي جماعة الفقهاء وأصحاب الحديث من أمثال عُروة بن أذينة وعبيد الله بن عتبة وعبد الرحمن الجشمي الذي سمع سلامة وهي تغني، فوقعت في قلبه وهام بها حبا، ونظم فيها كثيرا من الأشعار، وكان يعرف بالقس لكثرة عبادته، فلما ذاعت فيها أشعار نسبت إليه، سُميت سلامة القس، وقالوا إنها همت ذات يوم أن تقبله فامتنع عليها، فقالت له: ما يمنعك وأنت تحبني؟ فقال لها ويحك أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمئذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ وإني والله أكره أن تكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة في يوم القيامة، ونهض وعيناه تذرفان بالدموع. وتأثر بصنيع الفقهاء كثير من أهل مكة والمدينة، فكان غير شاعر يرتفع بحبه عن أن يكون عبثا وهوا، وإذا كان عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزلين الحضريين في البلدين يتخذ الغزل فنا من فنون الترف ويقصد به إلى العبث والدعابة، فقد كان وراءه غزلون صادقون يرتفعون بغزلهم عن اللهو والهزل على نحو ما نجد عند الحارث بن خالد القرشي، فقد كان عاشقا لعائشة بنت طلحة، وله فيها أشعار كثيرة تصور وجده وحرقتة، ولما قتل عنها زوجها مصعب بن الزبير قيل له: ما يمنعك الآن من زواجها؟ قال: والله لا يتحدث رجال قريش أن تشيبي بها كان لريبة ولشي من الباطل.

وقد ظلت هذه الصورة الرائعة للغزل العفيف المحروم بعد العصر الإسلامي ترافق العرب في عصورهم المختلفة، فقد تأثرها غير شاعر، بل عاشها كثير من الشعراء أمثال العباس بن الأحنف صاحب فوز المشهور بغزلياته في العصر العباسي، وعنى بها المؤلفون فألف فيها محمد بن داود كتابه الزهرة، وألف ابن

حزم كتابه طوق الحمامة . وليس من ريب فى أن هذا الحب العفيف الذى يصور صفاء القلب وطهارة الضمير كما يصور احتمال الآلام والمشقات فى صور رائعة من الوجد، ليس من ريب فى أنه هو الذى أعد فيما بعد لظهور الحب الصوفى ، فقد وجد فيه الصوفية نبعاً لا ينضب ولا يجف لمواجهتهم إزاء الذات الإلهية، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة فى حنايا صدورهم وما قاسوا فى حبه من صنوف الآلام والبلايا والمحن.

وما المحب العذرى إلا صوفى خالص، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفى فى تغنيه بعشقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالمحبوب، وإنه ليسير فى طريق لا نهاية لها ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفى فى ارتفاعه عن كل صفائر الحياة، لعله يقترّب من قدس الأقداس، وصوفى فى ابتهاله وذله وضراعتة، وما أشبه شعره بالزاتيل الدينية. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذرى هو الذى أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفى السامى.

غزل وقصص كثير

بين أيدينا من هذا الغزل العذرى تراث ضخم يحفل به كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني وغيره من كتب الأدب القديمة، ولحن لا نلم به حتى نراع روعة شديدة، وهى روعة ترجع إلى بساطته وسذاجته كما ترجع إلى صدقه وإخلاص قائله فى تصوير عاطفته، ولذلك كنا لا نقرؤه حتى نتأثر به تأثراً شديداً، لأنه يمثل نفوساً عاشقة حقاً، وهى نفوس تتألم، نفوس قد طهرها الحب وصفهاها من أدران الحس، فارتفعت عن المادة وكل ما يتصل بالمادة إلى أفق رفيع من نقاء القلب وصفاء الضمير.

والشاعر يمشى فى طريق مليء بالصعاب والأشواك، صعب الهجر والصب
 وأشواك الوشاة والرقباء، وهو يجاهد ويعانى، لا يتحول عن وجهته، فعينه دائم
 معلقة بالمحجوب، الذى سلب روحه وعقله وأشفى به على التلف والهلاك. ومهم
 صد عنه ولم يبادل الهوى والود، فإنه لا يبأس من بلوغ الأمل المحجوب فى أستان
 الغيب، فالصبح قريب، وهو لا يكف عن الرجاء، مهما تكاثفت الدياتج
 وتلاحقت الظلمات، فالحيب سيدنو منه وسيفوز بلقائه، وسينهل من مورده
 العذب ما يشفى غصصه، ويزيل حزنه وترحه. ولكن أين هذا المورد العذب؟ إن
 لا يظفر بنهلة منه تروى ظمأه، وهو إن اقترب منه لا يلبث أن يبعد فى صحراء
 هذا الحب، وهى صحراء موحشة محرقة، تملئ بأعاصير لا أول لها ولا آخر.
 وكم يلقي سالكها من متاعب ومصاعب، وكم يحف به من أخطار ومهالك:
 وهو باكى العين محزون الفؤاد موزع الخاطر قد امتلأ صدره بالهموم والغموم.

ولا تظن أن هذا الجحيم الذى كان يشتعل فى فؤاد الشاعر العذرى كات
 حمما ونيرانا خالصة، فإنه سرعان ما يتحول بردا وسلاما ويصبح نعيما وربيعا
 باسم حين يفوز من محبوبته بوصول أو لقاء أو زيارة فإن الدنيا تشرق من حوله،
 وتصبح بهجة وسعادة خالصة، وهى سعادة لا يناها إلا بعد التعب والضنى
 والصبر الطويل. فالثمرة الحلوة لا يجنيها إلا من كابد وعانى، وعلى المحب دائما
 أن يحتمل أوار الحب وما يلفحه من رياح الهجر، متطلعا إلى نسيم الرضا، وعليه
 أن يحتمل أشواك الطريق حتى ينال الرضا، وأن يعانى حنادس الليل الطويل حتى
 يظفر بالفجر الجميل.

وأنت لا تقرأ فى شعر هؤلاء العذرين حتى يملك عليك نفسك بهذه اللوعة،
 بل هذه الغلة التى تتحرق لها قلوبهم دون أن يستطيعوا لها برءا أو شفاء، وأنت
 لا تجد أثناء ذلك تكلفا ولا ما يشبه التكلف وإنما تجد صدق اللهجة وحدة
 الشعور وحرارة العاطفة مما يأسر لبك ويخلب عقلك. ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا

الشعر العذرى هو أروع صورة عربية لشعر الحب، فقد محص العشق قلوب هؤلاء الشعراء وطهرها وصفها بل جعلها طهرا وصفاء خالصا.

وبون بعيد بين شعر هؤلاء الشعراء وشعر أسلافهم الجاهليين، فقد كانوا وثنيين ماديين، وكان شعرهم أو غزلهم ماديا إباحيا، لا كرامة فيه للمرأة ولا إجلال ولا قدسية، فالشاعر يتغزل فيها صادرا في غزله عن غرائزه الجنسية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، فإذا تركنا الجاهليين إلى كثرة الشعراء المتحضرين في مكة والمدينة ممن كانوا يعاصرون العذريين وجدنا الغزل عندهم تشوبه المادة في كثير من جوانبه، ويقصد فيه الشاعر إلى العبث والهزل والدعابة في كثير من الأحيان، فهو ليس شعر الحب الملتاع ولا شعر الحب العفيف الذى لا يعرف الحس والمادة ولا الهزل والعبث، وإنما يعرف الحب الجاد الحزين وما يبعث في نفس المحب من عاطفة متقدة ومن كآبة وحزن ومن يأس ورجاء وشقاء وسعادة.

وعلى هذا النحو لم يكن غزل العذريين كغزل المتحضرين الذين عاصروهم ولا كغزل أسلافهم الجاهليين، فهو غزل يعبر عن نفوس محرومة قد طهرها الإسلام من كل دنس، وبرأها من كل غرض جسدى تافه، غزل لا يراد به إلى تصوير المرأة وإنما يراد به إلى تصوير هذه النفس العاشقة وما تبتس به وتنعم فى عشقها وما تكابده فى هذا العشق من ألوان العناء وما تجنيه من ثمرات حلوة إن صح أن تكون هناك ثمرات حلوة مرة فى آن واحد.

والإسلام من غير شك هو الذى هيا لظهور هذا الغزل، فقد صان المرأة وأسبغ عليها غير قليل من الكرامة والإجلال، وبعث فى نفوس هؤلاء البدو مثالية خلقية، جعلتهم أو جعلت أفئدتهم تصغى الى تعاليمه، فإذا هى تخلصها من أدران الجاهلية وأدران الجسد وما يتصل بالجسد، وإذا هذه النفوس قد صفيت وصفى معها الحب، وتخلص من شوائبه المادية القديمة. ولم تشع بين هؤلاء البدو

من العذريين الحضارة ولا دخل فى ديارهم الترف، فلم تفسد نفوسهم ولا تحول غزلهم الى فن من فنون الترف، بل بقيت له بداوته وسذاجته ويساطته، وأخذوا يعبرون به عن دخائل نفوسهم إزاء المرأة وقد حاطها الإسلام بهالة من التجلّة، فإذا هم ترق أحاسيسهم وتنبل عواطفهم ومشاعرهم، وإذا هذا الغزل العفيف الظامى يصدر عن فطرتهم وسليقتهم صدورا طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة.

ولم ترو لنا كتب الأدب هذا الغزل وحده، وإنما قدمته فى قصص غرامى يصور إلى حد بعيد تجارب كل عاشق من هؤلاء العشاق وما بعثه فى كل تجربة على نظم مقطوعاته الغزلية أو الوجدانية، وأنت لا تقرأ هذا القصص حتى تجد فيه المزوجة الدقيقة بينه وبين الأشعار التى رويت فيه، فقد حافظ القصاص على سياق هذا القصص، ولم يفرطوا فى وضع المناسبات الدقيقة لما ساقوا من أشعار.

والذى لا ريب فيه أن لغة هذا القصص كلغة ما روى فيه من أشعار، لغة فيها جزالة وفيها هذا الصفاء الذى نجده فى شعر العذريين، أو قل هذا الجمال اللفظى الذى يمتاز به الغزل العذرى. ولم يعقد الرواة فى هذا القصص، بل تركوه فى حال ساذجة، كسذاجة هؤلاء البدو الذين روى عنهم، فهو قصص بسيط، ليس فيه تكلف ولا ما يتصل بالتكلف، قصص بدوى إن صح هذا التعبير، ليس فيه بُعد ولا إغراق فى التخيل، ومن هنا يأتى جماله، لأنه يصور حياة فطرية سليمة.

ويظهر أن القصص لم يدركوا سبب هذا الغزل المحروم وأن مثالية الإسلام الخلقية هى التى دفعت إليه، فوضعوا من عند أنفسهم سببا ظنوا أنهم به يستطيعون أن يوجدوا العقدة النفسية التى أحدثت هذا الحرمان، وهو سبب سيراه القارئ منتشرا فى كثير من هذا القصص الذى روينا، وذلك أنهم يروون أن العرب فى هذا العصر الإسلامى الذى ظهر فيه ذلك الغزل العذرى الملتاع

الظامى أبدا كانوا يكرهون أن يزوجوا فتياتهم من عشاقهم الذين ينظمون فيهن أشعارهم، فيفضحونهن ويفضحون آباءهن وعشائرنهن، وهى فضيحة كبرى لم يكن بد من أن يعاقب عليها العاشق، فيحرم من معشوقته جزاء وفاقا لجرمته فى حقها وحق أهلها. ولا يعرف التاريخ الصحيح هذه العادة للعرب، وهى ليست من سنن الإسلام ولا مما فرضه على الناس، وهو لا يحرم الحب الطاهر الشريف، إنما يحرم الحب الآثم الخسيس.

وزاد الرواة أن السلطان كان يهدر دم هؤلاء الغزلين، وليس بمعقول أن الخلفاء الأمويين كانوا يهدرون دماءهم ويستبيحونها، بغير نص من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى، وما حرم الإسلام شيئا كتحریم القتل، بل لقد حرمه حتى فى الأخذ بالتأر، فكيف يحلله الخلفاء والحكام فى العشق العفيف والحب الطاهر الشريف، ولقد كانوا هم أنفسهم يروون غزل هؤلاء المحبين ويعجبون به وما فيه من وجد وهيام، وكان أمامهم شعراء مكة والمدينة من أمثال عمر بن أبى ربيعة، ممن كانوا يصرحون فى حبهم ولا يوارون ولا يستخفون ولا يخجلون، ولم يحدث أن طلبوا عقابهم فضلا عن قتل النفس المحرمة بغير حق. إنما هو خيال القصاص الذين صاغوا هذه الأخبار، ولم يفكروا فى أنهم يكتبون حقائق، إنما فكروا فى أنهم يكتبون قصصا للتسلية والمتعة الأدبية، وقد رأوا فى إهدار دم العاشق البدوى وتحریم المعشوقة التى تغزل بها عليه ما يجبك قصصهم الغرامى ويسند سياقه، فعمدوا إلى رواية ذلك بقصد الحبكة القصصية. ويمكن أن ندخل فى هذه الغاية الفنية الخالصة ما تخيلوه من توحش مجنون ليلى حتى ألف الأطباء، وعاشته، وما أكثروا من غشيان الإغماء للعشاق وكيف أنه قد يودى بحياتهم. فكل ذلك إنما هو خيوط خيالية أضيفت إلى النسيج الواقعى لهذه القصص الغرامية، وهى خيوط ساعدت على إحكام هذا القصص وجعلته عملا فنيا بديعا.

مَجْنُون لَيْلَى

المجنون وصاحبتة ليلى

كان قيس بن الملوّح جميل الوجه أبيض اللون، وكانت ليلى ابنة عمه المهدي من أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهنّ جسما وعقلا وأفضلهنّ أدبا وأملهن شكلا. وقد نشأ معا يلعبان في حى من أحياء بنى عامر بنجد، ويتبادلان صداقة الطفولة العذبة حتى إذا شبا قليلا تبعا - على عادة أمثالهما - أغنام أبيهما، يرعيانها، وكل منهما يألف صاحبه ويشعر بالسرور في رفقته، ولم يكونا يعلمان ما يحبّه هما القدر وأنه جادٌ من ورائهما في نسج قصة رائعة من قصص الحب العذرى الطاهر. وكم من أطفال نشئوا معا، وكم من أطفال تقابلوا وتحادثوا ولم يأبه بهم الناس، لأن لقاءهم وحديثهم ذهابا مع الريح، أما لقاء المجنون بليلى وأحاديثه معها فقد خلّدا على التاريخ، إذ تطور هذا اللقاء وتلك الأحاديث إلى نبع لا ينضب من ينابيع الحب الشريف. لقد كانا يرعيان الأغنام وأولادها الصغار التي يسميها العرب البهّم، وهما لاهيان عن الدنيا وعن أمرهما، لا يعرفان ما الحب ولا ما أماراته. وكبرت ليلى، وأصبحت عروسا تخطب، فمنعها أبوها من الرعى على عادة لداتها حين يكبرن، وظلت صورتها فى الرعى لا ترح ذاكرة قيس، فقد كان يرى فيها أجمل ذكرياته معها، وفى ذلك يقول:

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابةٍ ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ
صغيرين نرعى البهّم ياليت أنا إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهّم

الدلاع نيران الحب

انقطعت ليلى عن لقاء قيس بن الملوّح، فأحس بفراغ كبير، بل سرعان ما أحس أن المودة التي كانا يتبادلانها تركت آثارا عميقة فى نفسه، وذات مرة

كان يمر بالحى راكبا ناقة له، فرآها مع نسوة، ودعونه إلى النزول والحديث معهن، فنزل، وكان محدثا لبقا، وجعل يحادثهن، وعينه لا تفارق ليلي، وجاءته لتمسك معه باللحم، وهو يقطعه، فقطع كفه بالسكين وهو شاخص فيها، فجذبت السكين من يده وهو لا يدري. وأوقد نارا للشواء، وطرح قطع اللحم فيها، وأقبل يحادثها، فقالت له : انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمدَّ يده إلى الجمر، وجعل يقلب بها اللحم، فاحترقت وهو لا يشعر. ولما عرفت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شدت يده بهُذْب رداؤها. وذهب وقد استحکم عشقها في قلبه.

وكانت ليلي بعد هذا المجلس تستدعيه لزيارتها، فكان يأتيها ويتحدثان وكل منهما مقبل على صاحبه معجب به، ولا يزالان كذلك حتى يمسي. وانصرف يوما إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقا إليها واجتهد أن يغمض، فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لى الليلُ شاقنتى إليك المضاجعُ
أقضى نهارى بالحديث وبألمنى ويجمعنى والهَمُّ بالليلِ جامعُ
لقد ثبتتْ فى القلبِ منكِ محبةٌ كما ثبتتْ فى الراحتينِ الأصابعُ

وخرج ذات يوم يريد زيارتها، فلما قرب من منزلها لقيته جارية فتشاءم منها، فلما سار إليها حدثها بقصته وتشاؤمه من الجارية وأنه يخاف تغير عهدها وبكى، فقالت له: لا تخف، حاش لله من تغير عهدى، لا يكون والله ذلك أبداً إن شاء الله. فلم يزل عندها يحادثها بقية يومه. ووقع له فى قلبها مثل ما وقع لها فى قلبه. فجاءها يوما كما كان يجي، وأقبل يحادثها، فأعرضت عنه، وأقبلت على فتى يسمى منازلًا بحديثها، تريد بذلك محنته وأن تعلم ما فى قلبه، فلما رأى ذلك جزع جزعا شديدا حتى بان فى وجهه وعُرف فيه، فلما خافت عليه أقبلت كالمسيرة إليه، فقالت:

كلانا مظهرٌ للناس بُغْضاً وكلُّ عند صاحبه مَكِينٌ
تُبَلِّغنا العيونُ مقاتلينا وفي القلبين ثمَّ هَوَى دَفِينٌ
وأَسرارُ المَلاحِظِ ليس تَخْفَى إذا نطقتُ بما تُخْفَى العيونُ

فسرّى عنه وانكشف همه وعلم ما فى قلبها، فقالت له: إنما أردت أن أمتحنك والذى لك عندي أكثر من الذى لى عندك، وأعطى الله عهدا إن جالست بعد يومى هذا رجلا سواك، حتى أذوق الموت إلا أن أكرهه على ذلك، فانصرف عنها قرير العين، وهو يقول:

أظنُّ هواها تاركى بِمَضَلَّةٍ من الأرض لا مالٌ لى ولا أهلٌ
ولا أحدٌ أفضى إليه وصيى ولا صاحبٌ إلا المطيئة والرحلُ
محا حُبها حُبَّ الألى كُنَّ قلبها وحلّت مكانا لم يكن حلٌّ من قبلُ

استغراق المجنون فى الحب

وسئل قيس قبل اختلاط عقله عن أعجب شى أصابه فى وجده بليلى، فقال: طرقتنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أذم (غموس) فبعثنى أبى إلى منزل عمى أبى ليلى وقال: أطلب لنا منه أذما، فأتيته، فوقفت على خيائه، فصحت به، فقال: ما تشاء؟ فقلت: طرقتنا أضياف ولا أذم عندنا لهم، فأرسلنى أبى نطلب منك أذما، فقال: يا ليلى أخرجى إليه ذلك النحى (زق السمن) فاملئى له إناءه من السمن، فأخرجته ومعى قدح، فجعلت تصب السمن فيه ونتحدث، فأهانا الحديث وهى تصبُ السمن، وقد امتلأ القدح ولا نعلم جميعا وهو يسيل حتى استتقت أرجلنا فى السمن.

وأتيهم ليلة ثانية أطلب نارا وأنا متلقع ببرد (ثوب) لى، فأخرجت لى نارا فى خرقة، فأعطيتها، ووقفنا نتحدث، فلما احترقت الخرقة قطعت من بردى خرقة

وجعلت النار فيها، وكلما احترقت خرقة قطعت أخرى ووضعت بها النار، حتى لم يبق على من البرد إلا ما وارى (ستر) عورتى وما أعقل ما أصنع.

احتجاب ليلي

كان قيس أول ما علق ليلي كثير الزيارة لها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فلما علم أهلها بعشقه لها منعه من إتيانها وتقدموا إليه أن لا يعود إلى التحدث إليها، فطار عقله، وكان أهله يعزونه عنها ويقولون له: نزوجك أنفس جارية فى عشيرتك، فيأبى إلا ليلي ويهدى بها ويذكرها، فيلومونه ويعذلونه على ما يصنع بنفسه وأكثروا عليه فى الملامة والعدل يوما فقال وقد غلب عليه البكاء:

فواكبداً من حُبِّ من لا يُجِئني ومن زَفَرَاتٍ ما هُنَّ فَنَاءُ
أَتَارِكْتِي للموتِ أَنْتِ فَمِيتُ وما للنفوسِ الخائفاتِ بقاءُ

وذكروا: أن نسوة من عشيرته جلسن إليه، فقلن له: ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك كل ما نرى فى هوى ليلي، وإنما هى امرأة من النساء؟ وهل لك فى أن تصرف هواك إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع إليك ما غاب من عقلك وجسمك؟ فقال هن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إلكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت فى الناس مستريحا، فقلن له: فما الذى أعجبك منها؟ قال: كل شى رأيتُه وسمعتُه وشاهدتُه منها أعجبنى. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان فى عيني حسنا، ولقد جهدت أن يقبح عندي منها شى أو يسمح أو يعاب لأسلو عنها، فلم أجده، فقلن له: فصفها لنا، فأنشأ يقول:

بيضاءُ خالصةُ البياضِ كأنها قمرٌ توسطَ جُنْحِ ليلِ مُبْرَدِ
مَوْسُومَةٌ بالحسنِ ذاتُ حواسِدِ إن الجمالَ مَظِنَّةٌ لِلْحُسْدِ

ليلى لا تفى لقيس بوعددها

وذكروا: أن ليلى وعدته أن يزورها ليلة إذا وجدت فرصة لذلك، فمكث مدة يرأسلها فى الوفاء وهى تعده وتسوفه حتى كان يوم خرج فيه الرجال عن الحى، فجلس إلى نسوة من أهلها فى ناحية منها بحيث تسمع كلامه، فحادثهن طويلا، ثم قال: ألا أنشدكن أبياتا صنعتها فى هذه الأيام؟ قلن: بلى، فأنشدهن:

يا للرجال لهم بات يعرونى مُسْتَطْرِفٍ وَقَدِيمٍ كَادَ يُبْلِيَنِى
مَنْ عَاذِرَى مِنْ غَرِيمٍ غَيْرِ ذَى عُسْرِ يَا أَبَى فِيمَطَّنَى ذَيْنَى وَيَلْوِينَى
وَمَا كَشْكُرَى شَكَرٌ لَوْ يُوَافِقُنَى وَلَا مُنَاى سِوَاهُ لَوْ يُوَاتِينَى
أَطَعْتَهُ وَعَصَيْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِى أَمْرِهِ وَهَوَاهُ وَهُوَ يَعْصِينَى

فقلن له: ما أنصفك هذا الغريم الذى ذكرته، وجعلن يتضحكن من قوله وهو ييكي، فاستحت ليلى منهن ورقت له حتى بكت، وقامت ودخلت بيتها، وانصرف.

رسول بينه وبين ليلى

قال رجل من عشيرة قيس له وقد تدله فى جها: إنى ملّم بمنزل ليلى فهل تودعنى إليها شيئا؟ فقال: نعم، قف بحيث تسمعك ثم قل:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ هَالِكَةً بِالْيَأْسِ مِنْكَ وَلَكِنِ أَعَزِّيَهَا
مَنْيْتُكَ النَّفْسَ حَتَّى قَدْ أَضْرَبَهَا وَاسْتَيْقَنَتْ خُلْفًا مِمَّا أَمْنِيَهَا
وَسَاعَةً مِنْكَ أَلْهَوْهَا وَإِنْ قَصُرَتْ أَشْهَى إِلَى مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

فمضى الرجل ولم يزل يرقب خلوة من ليلى حتى وجدها، فوقف عليها، ثم قال لها: يا ليلى لقد أحسن الذى يقول:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ هَالِكَةً بِالْيَأْسِ مِنْكَ وَلَكِنِ أَمْنِيَهَا

وأنشد الأبيات، فبكت بكاء طويلاً ثم قالت: أبلغه السلام وقل له:

نفسى فداؤك لو نفسى ملكتُ إذن ما كان غيرك يَجْزِيها ويُرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيك على مرارة في اصطبارى عنك أخفيها

وأبلغ الفتى قيسا البيتين وأخبره بحالها، فبكى حتى سقط على وجهه مغشياً عليه،
ثم أفاق وهو يقول:

عَجِبْتُ لَعْرُوةَ العُدْرَى أَضحى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وَعُرُوةٌ مات موتاً مُسْتَرْجِحاً وها أنا ميّتٌ فى كل يوم

السنة السوء

اجتاز قيس بن ذريح بقيس بن الملوح وهو جالس وحده فى نادى قومه،
وكان كل واحد منهما مشتاقاً إلى لقاء الآخر، وكان قيس بن الملوح (المجنون) لا
يحدث أحداً ولا يرد على متكلم جواباً، فسلم عليه قيس بن ذريح، فلم يرد
عليه السلام، فقال له: يا أخى أنا قيس بن ذريح، فوثب إليه، فعانقه، وقال له:
مرحبا بك يا أخى، أنا والله مسلوب العقل، فلا تلمنى، فتحدثا ساعة وتشاكيا
وبكيا، ثم قال له قيس بن الملوح: يا أخى إن منزل ليلي منا قريب، فهل لك أن
تمضى إليها فتبلغها عنى السلام؟ فقال له: أفعل. فمضى قيس بن ذريح حتى أتى
ليلى فسلم وانتسب فقالت له: حيّاك الله، ألك حاجة؟ قال: نعم ابن عمك
أرسلنى إليك بالسلام، فأطرقت ثم قالت: ما كنت أهلاً للتحية لو علمت أنك
رسوله، قل له عنى: رأيت قولك:

أبتُ لَيْلَةً بِالغَيْلِ يا أمَّ مالكٍ لكم غير حبٍّ صادقٍ ليس يكذب

لقد فضحنى بذكره ليلة الغيل (اسم واد) وأى ليلة هذه؟ وهل خلوت معه فى
الغيل ليلاً أو نهاراً؟ فقال لها ابن ذريح: يا ابنة عم إن الناس تأولوا كلامه على

غير ما أراد فلا تكونى مثلهم، إنما أخبر أنه رآك ليلة الغيل لا أنه عناك بسوء. فأطرقت طويلاً ودموعها تجرى وهى تكفكفها، ثم انتحبت، ثم قالت: اقرأ على ابن عمى السلام وقل له: بنفسى أنت، والله إن وجدى بك فوق ما تجدد ولكن لا حيلة لى فيك.

شفقة الأم

لما عشق قيس بن الملوح ليلى وهام بها ترك الطعام والشراب، فأشفقت عليه أمه ومضت إلى ليلى، فقالت لها، إن قيساً قد ذهب حبك بعقله وترك المطعم والمشرب فلو جئته وقتاً لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله فقالت ليلى: أما نهاراً فلا، لأنى لا آمن قومى على نفسى، ولكن ليلاً، فأتته ليلاً، فقالت له: يا قيس إن أمك تزعم أنك جُننت من أجلى وتركت المطعم والمشرب، فاتق الله وأبق على نفسك فبكى وقال:

قالتْ جُنِنتَ على رأسى فقلت لها الحبُّ أعظمُ ممَّا بالجنانينِ
الحبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرَعُ الجنون فى الحينِ

فبكت معه، وتحدّثا حتى كاد الصبح يُسفر، ثم ودعته وانصرفت، فكان آخر عهده بها.

المهدى يرفض قيساً ويهدر الحاكم دمه

كان قيس عند أبيه الملوحة أعظم منزلة من إخوته وكان أبوه ذا ثروة، فدفع له خمسين بعيراً وراعيها فى مهر ليلى فلم يقبل أبوها المهدى مع أنه كان أقل منهم ودونهم ثراء، لسنة ذاعت عند العرب، وهى أنهم كانوا يكرهون تزويج اثنين انتشرت الأخبار بمحبتهما.

ولم يكتف المهدى برفضه، فقد أبلغ أمره وعشقه إلى الحاكم، فأهدر دمه إن
أناهم، وتوعده بالقتل إن ألمّ بدارها، فقال:

ألا حُجبت ليلى وآلى أميرها علىّ يميناَ جاهداً لا أزورها
على غير ذنبٍ غير أنى أحبها وأنّ فؤادى رهنتها وأسيرها

ولما عرف أبوها أن هذا التهديد لا يصرفه عن غشيان داره وأنه لا يزال
يطلب فرصة ارتحل بليلى وأبعد، وجاء قيس عشية فأشرف على الدار، فلم
يجدها، فقصدها مكانها، وألصق صدره به وجعل يمرغ خديه على ترابه وهو يبكى
ويقول:

يا صاحبيّ ألبا بي بمنزلةٍ قد مرّ حينٌ عليها أيّما حينٍ
إني أرى رجعات الحب تفتلني وكان في بدئها ما كان يكفيني
ألقي من اليأس تاراتٍ فتقتلني وللرجاء بشاشاتٍ فتتحينني

جنون قيس بليلى

لما بعد المهدى بابتته ليلى عن قيس ومنازل قومه جُنُّ بها جنونا، فكان لا
يعاوده عقله إلا قليلاً، ولم تزل تلك حاله غير مستوحش، إنما يكون فى جنبات
الحى عاريا منفردا لا يلبس ثوبا إلا خرقةً، وهو يهدى ويخطط فى الأرض ويلعب
بالتراب والحجارة، ويجمع العظام حوله، ولا يجيب أحدا سألته عن شىء، فإذا
أحبوا أن يتكلم أو يثوب إليه عقله ذكروا ليلى، فيقول: بأبى هى وأمى، ويرجع
إليه عقله ويخاطبهم فيجيبونه.

ولما طال على قيس ذلك قال قوم لأبيه: لعل الجن قد أصابته، فكان يأتيه
بالتائم والتعاويد ويرش عليه الماء، لاعتقاد العرب أن الجن تنفر من ذلك،
فكان يأبى هذا الصنيع إباء شديدا وينشد:

وجاءوا إليه بالتعاويد والرقي
وقالوا به من أعين الجن نظرة
وصبوا عليه الماء من ألم النكس
ولو عقلوا قالوا به أعين الإنس

توسط نوفل بن مساحق

كان نوفل بن مساحق يتولى جمع الزكاة من بني عامر لوالى الحجاز من قبل بنى أمية، فسمع بشأن قيس، فرق له، وذات يوم كان يمر بمنازل قومه، فرآه وهو يلعب بالتراب وقد تعرّى جسده، فقال لغلام معه: يا غلام هات ثوبا، فأتاه به، فقال لبعض من معه: خذ هذا الثوب، فألقه على ذلك الرجل، فقال له: أتعرفه؟ جعلت فداك، قال: لا، قال: هذا ابن سيد الحى، والله ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن، وإذا طرح عليه ثوب خرّقه، ولو أنه كان يلبس ثوبا لكان فى مال أبيه ما يكفيه. وحدثه عن أمره، فدعا به نوفل وكلمه، فجعل لا يعقل شيئا يكلمه به، فقال له قومه: إن أردت أن يجيبك جوابا صحيحا، فاذكر له ليلى، فذكرها له، وسأله عن حبه إياها، فأقبل عليه يحدثه بحديثها ويشكو إليه وجده بها وينشده شعره فيها، فقال له نوفل: هل انتهى بك الحب إلى ما أرى؟ قال: نعم وسينتهى بى إلى أشد مما ترى. فعجب منه وقال له: أتحب أن أزوجك إياها؟ قال: نعم وهل إلى ذلك من سبيل؟ قال نوفل: انطلق معى حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها إليك وأرغبهم فى المهر لها. قال قيس له: أترأى فاعلا؟ قال: نعم، قال قيس: سأنظر ما تقول! قال نوفل: لك على أن أفعل ذلك. ودعا له بثياب، فألبسه إياها، وراح معه المجنون كأصح أصحابه يحدثه وينشده. فبلغ ذلك عشيرتها، فلقوه فقالوا: يا نوفل لا والله لا يدخل المجنون منازلنا أبدا أو نموت وقد أهدر لنا السلطان دمه، فأقبل بهم وأدبر، فأبوا. فلما رأى ذلك قال للمجنون: انصرف. فقال له المجنون: والله ما وفيت بالعهد، فقال له: انصرفك بعد أن أياسنى القوم من إجابتك أصلح من سفك الدماء، فقال قيس:

إذا ذُكِرْتُ ليلي عَقَلْتُ وراجعتُ عَوَازِبُ عَقْلِي من هَوَى مُتَشَعِّبِ
 وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جَنَّةٍ ولا لهمُ إلا افتراءُ التَكْذِبِ
 وشاهدٌ وجدى دمعُ عيني وحبُّها بَرَى اللحمَ عن أحناء عظمي ومنكبي
 وأصبحت من ليلي الغداة كناظرٍ مع الصبح في أعقاب نَجْمٍ مُغْرَبِ

ليلى لا تنسى قيسا

خرج رجل إلى أرض نجد في طلب بغية له، فإذا هو بخيمة قد رفعت، وكان
 قد أصابه المطر فعدل إليها، وتنحج، فإذا امرأه قد كلمته، وقالت له: انزل،
 فنزل، فقالت: سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقال: من ناحية تهامة ونجد،
 فقالت: أدخل أيها الرجل، فدخل إلى ناحية الخيمة، فأرخت بينها وبينه سترا، ثم
 قالت له: أي بلاد نجد وطئت، فقال كلها وطئت، فقالت له: فيمن نزلت هناك؟
 فقال: ببني عامر، فتنفست الصُّعداء ثم قالت فباى بنى عامر نزلت؟ فقال: ببني
 الحريش (وهم قوم قيس). فاستعبرت، ثم قالت: هل سمعتَ بذكر فتى منهم يقال
 له: قيس بن الملوِّح ويلقب بالمجنون، فقال: بلى والله وعلى أيه نزلت، وأتيتَه،
 فنظرت إليه يهيم في تلك الفياض ويكون مع الوحش ولا يعقل ولا يفهم إلا أن
 تذكر له فتاة يقال لها ليلي، فيبكي وينشد أشعارا فيها. ولما سمعت ذلك من
 الرجل رفعت السر بينها وبينه والتفت الرجل فإذا فَلَقةٌ قمر لم تر عينه مثلها،
 فبكت حتى ظن أن قلبها قد انصدع، فقال لها: اتق الله أيتها المرأه فما قلت
 بأسا. فمكثت طويلا على تلك الحال من البكاء والنحيب، ثم قالت:

ألا ليتَ شعري والخُطوبُ كثيرةٌ متى رَحَلُ قيس مُسْتَقِيلُ فراجعُ
 بنفسِي مَنْ لا يستقلُّ بنفسه ومن هو إن لم يحفظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتى سقطت مغشيا عليها، فقال لها: من أنت يا أمة الله؟ وما
 قصتك؟ قالت: أنا ليلي صاحبتة المشثومة والله عليه غير المواسية له.

لقاء مفاجئ

مر المجنون فى توحشه بحى ليلى، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته فصعق وخرَّ
مغشياً عليه، فأقبل فتيان من عشيرة ليلى فأخذوه ومسحوا التراب عنه وأسندوه
إلى صدورهم، وسألوا ليلى أن تقف له وقفه، فرقت لما رأته به، وقالت له: أعذر
علىّ بما أنت فيه، ولو وجدت سبيلاً إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى منه، فأفاق
وجلس، وقال: هيهات إن دائى ودوائى أنت وإن حياتى ووفاتى لفى يديك،
ولقد وكّلت بى شقاء لازماً وبلاء طويلاً، ثم بكى وأنشأ يقول:

أقول لأصحابى هى الشمس ضوءها قريبٌ ولكن فى تناؤها بُعدُ
لقد عارضتنا الريحُ منها بنفحةٍ على كبدى من طيبِ أرواحها بردُ
ومازلتُ مَغشياً علىّ وقد مَضتْ أناةٌ وما عندى جوابٌ ولا ردُّ
عِينى - بنفسى أنتِ - وعداً فرما جلا كربةً المكروبِ عن قلبه الوعدُ

زواج ليلى

وتسامع العرب بليلى وعشق قيس بن الملوح لها وجنونه بها، فخطبها
كثيرون، فلم يرضهم أهلها، وخطبها شاب موسر من ثقيف (الطائف) فزوجوه
بها، وأخفوا ذلك عن المجنون، ثم نعى إليه طرف منه فقال:

دعوت إلهى دعوةً ما جهلتها ورئى بما تُخفى الصدورُ بصيرُ
فقد شاعت الأخبارُ أن قد تزوّجتُ فهل يأتينى بالطلاق بشيرُ

وبلغه أن أهلها يريدون نقلها إلى الثقيف فقال:

كان القلبَ ليلةً قيل يُغدى بليلى العامرية أو يُراخ
قطاةً غرّها شركٌ فباتت تجاذبه وقد غلقَ الجناحُ

وكان ينشد وهو يبكى ويتفجع:

أمزعةً للبين ليلي ولم تمت كأنك عما قد أظلك غافلُ
ستعلم إن شطتْ بهم غربةُ النوى وزالوا بليلى أن لبك زائلُ

ولما أرادوا الرحيل بها أخذه أبوه، ووقف به مستترا، حتى ينظر إليها وهي
راحلة مع زوجها وقومها، لعل ذلك يشفى شيئا من غليله، فلما رأهم يرتحلون
بكي أحرَّ بكاءً ونشج أحرَّ نشيج، وأنشد في صوت متقطع:

ألا أيها القلبُ الذي لجَّ هائماً بليلى وليداً لم تُقطع ثمائمُه
أفقُّ قد أفاق العاشقون وقد أنى لما بك أن تلقى طيبيا ثلاثمُه
فما لك مسلوبَ العزاء كأنما ترى نأى ليلي مغرماً أنت غارمُه

فقال له أبوه: ويحك! إنما جئت بك متخفياً ليزوح بعض ما بك بالنظر
إليهم، فإذا فعلت ما أرى عُرفت، وقد أهدر السلطان دمك إن مررت بهم،
فأمسك أو فانصرف، فقال: ما لي سبيل إلى النظر إليهم يرتحلون وأنا ساكن غير
جازع ولا باك، فانصرف بنا، ومضى وهو يقول:

ذدِّ الدمع حتى يظعن الحىٰ إنما دموعك، إن فاضتْ، عليك دليلُ

رفاق قيس يحاولون التسرية عنه

اجتمع إلى قيس بعد زواج ليلي ورحيلها بعض رفاقه ممن كان يألفهم ويأنس
إليهم قبل توفه بها، فعزموا عليه أن يخرج معهم متنزهين في أحياء العرب
للترويح عن نفسه. ولبى رغبتهم، فسار معهم تعاوده الصحة دورا والجنون
دورا، ومروا في طريقهم بجبلى نَعْمان فقال له بعضهم: هذا جبلا نعمان وكانت
ليلى تنزل بهما، فقال: فأى الرياح يأتى من ناحيتهما؟ فقالوا: الصبا، قال:
فوالله لا أريم (أترك) هذا الموضع حتى تهب الصبا، فأقاموا معه ثلاثة أيام حتى
هبت، فانطلق معهم، وأنشأ يقول:

أيا جيلى نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلصن إلى نسيئها
أجد بردها أو تشفى منى حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس محزون تجلت همومها

وبينما كانوا يسرون أمطرتهم السماء مطرا شديدا أعقبته سيول كثيرة،
جعلت عبراته تسيل، وأنشد بصوت حزين لم ينسه رفاقه ولا نسوا حرقته أبدا:

جرى السيل فاستبكالى السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه يكون بواد أنت فيه قريب
يكون أجأجا دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أطل غريب الدار فى أرض عامر ألا كل مهجور هناك غريب
وإن الكئيب الفرد من أيمن الحمي إلى وإن لم آت له حبيب
ولا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر حبيبا ولم يطرب إليك حبيب

وغفلوا عنه ليلة، ثم افتقدوه فلم يجدوه، فركب ابن عم له فى طلبه، فرآه
عند مشرعة ماء وهو يتحدث إلى رجلين قد صادا ظبية، وربطها بحبل، وعيناه
تدمعان، يقول لهما: خلأها وخلأ مكانها بعيرى، وهو ينشد:

يا صاحبي اللذين اليوم قد أخذنا فى الحبل شبيها ليلي ثم خلأها
إلى أرى اليوم فى أعطاف شاتكما مشابها أشبهت ليلي فخلأها

فحل الرجلان وثاقها فولت تعدو هاربة مذعورة، فقال:

أيا شبة ليلي لا تخافى فإننى لك اليوم من وحشية لصديق
وبا شبة ليلي لو تلبثت ساعة لعل فوادى من جواه يفيق
تفر وقد أطلقتها من وثاقها فانت ليلي لو علمت طيق

وحاول ابن عمه أن يعود به إلى رفاقه فأبى إلا الرجوع إلى منازل قومه، فراقه،
وهو فى طول طريقه يتن ويتفجع وينشد:

تذكّرتُ ليلي والسّنينَ الخوالي
 خليلي لا والله لا أملكُ الذي
 قضاهما لغيري وابتلاني بحُبّها
 قضى الله بالمعروف منها لغيرها
 وما أشرف الأيفاع إلا صبايةً
 أعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ
 أحبُّ من الأسماء ما وافق اسمها
 وإنّي لأستغشى وما بي نعسة
 هي السحرُ إلا أدُّ للسحر رُقِيّةً
 وأيامَ لا أُغدي على الدهر عاديًا
 قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا
 فهلاً بشي غير ليلي ابتلاني
 وبالشوق مني والغرام قضى ليا
 ولا أنشد الأشعارَ إلا تداويا
 وقد عشتُ دهرًا لا أعُدُّ الليالي
 وأشبههُ أو كان منه مُدانيًا
 لعل خيالًا منك يلقى خياليا
 وإنّي لا أُلقي لها الدهرَ راقيا

تردده على جبل التوباد

كان قيس وليلي، وهما صبيان، يرعيان أغنام أبويهما عند جبل التوباد، وهو جبل في ديارهما، فلما ذهب عقله وتوحش كان يجرى إلى ذلك الجبل فيقيم فيه، فإذا تذكر الزمن الذي كان يطيف به هو وليلي جزع واستوحش وهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشام، فإذا تاب إليه عقله رأى ديارا ومواضع لا يعرفها، فيقول للناس الذين يلقاهم: بأبي أنتم أين التوباد من أرض بنى عامر؟ فيقولون له: وأين أنت من أرض بنى عامر؟ أنت بالشام، عليك بنجم كذا في السماء، فسر على جهته حتى تصل إلى ديار قومك. فيمضى على وجهه متبعا ذلك النجم، حتى يقع بأرض اليمن، فيرى ديارا ينكرها وقوما لا يعرفهم، فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون له: وأين أنت من أرض بنى عامر؟ عليك بنجم كذا وكذا. ولا يزال على ذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه بكى وقال:

وأجهشتُ للتوبادِ حين رأيتُهُ وكبر للرحمن حين رأيتُ
 وأذريتُ دمعَ العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني

فقلتُ له: قد كان حولك جيرةٌ وعهدي بذاك الحى منذ زمان
فقال: مَضَوْا واستودعوني حديثهم ومن ذا الذى يبقى على الحدّانِ
وانى لأبكى اليومَ من حدرى غداً فراقك والحيان مؤتلفانِ
سِجالاً وتَهْتاناً ووبلاً وديمةً وسحاً وتسكاباً إلى همّلانِ

رجل يدم له ليلى

سأل الملوّح أبو المجنون رجلاً قدّم من الطائف أن يمر بالمجنون فيجلس إليه
ويخبره أنه لقي ليلى وجلس إليها ووصف له صفات منها ومن كلامها يعرفها
المجنون، وقال له حدثه بها، فإذا رأيت أشراباً لحديثك واشتهاه فعرفه أنك ذكرته
لها ووصفت ما به فشتّمته وسبته وقالت إنه يكذب عليها ويشهر بها بفعله،
وإنها ما اجتمعت معه قط كما يصف. ففعل الرجل ذلك، وجاء إليه فأخبره
بلقائه لها، فأقبل عليه وجعل يسأله عنها، فيخبره بما أمره به الملوّح فيزداد نشاطاً
ويثوب إلى عقله، إلى أن أخبره بسبها إياه وشتّمها له، فقال وهو غير مكترث لما
حكاه عنها:

تمراً الصبا صَفْحاً بساكن ذى الحِمَى ويصدع قلبى أن يهبّ هبوبها
قرية عهدٍ بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث حلّ حبيبها
حلالٌ ليلى شتّمنا وانتقاصنا هنيئاً ومغفورٌ ليلى ذنوبها

حججه مع أبيه إلى الكعبة

ولما سلب المجنون عقله وطال عليه جنونه قال الحى لأبيه: احجج به إلى مكة
وادع الله عز وجل له، ومره يتعلق بأستار الكعبة، فيسأل الله أن يعافيه ممّا به
ويغضبها إليه، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء. وبينما الملوّح سائر مع ابنه فى
بعض الأودية إذا حمام يتجاوب، فبكى المجنون وأنشد:

ألا يا حَمَامَ الأَيْكِ مالِكَ باكِيا أفارقتَ إلفاً أم جفاكَ حبيبُ
 دعاكَ الهوى والشوقُ لما ترنّمتُ هتُوفُ الضُّحَى بين الغصونِ طَرُوبُ
 تُجاوبُ وُزُقاً قد سمعَنَ لصوتها فكلُّ لَكلٍ مُسَعِدٌ ومُجِيبُ
 وكان أبوه يرق له، فيقبل عليه في أثناء سيرهما يخاطبه ويسأله ويعظه، وهو
 ينظر إليه كأنه لا يفهم ما يقول فقد غمره ما هو فيه من الهوى والعشق. فلما
 طال خطابه إياه قال له: يا بني أما لكلامى جواب، فقال له: والله يا أبى ما
 علمت أنك كلمتني فاعذرني فإنى كما ترى مدهوب بى، ثم أنشأ يقول:

وشغلتُ عن فهم الحديث سوى ما كان منكِ فإنه شُغلى
 وأديم لَحْظَ محدثى ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلى

ولما صار مع أبيه بمكة كان يصنع صنيعا يرحمه منه عدوه، إذ يقول أخرجونى
 إلى الجبال لعلى أنتسم صبا لجد، فيخرجونه، فيتوجه نحو نجد، ويتنفس تنفسا يظن
 معه أن كبده قد انصدعت. وكان لا يلقى لنجديا حتى يسأله عن وديان نجد واد
 واد وموضع موضع، فيخبره وهو يبكى أحر بكاء وأوجعه للقلب، قائلا:

ألا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابها وأرواحها إن كان نجدٌ على العهد

ولما انتهى إلى منى سمع صائحا فى الليل يصيح: يا ليلي، فصرخ صرخة ظنوا
 معها أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم
 أفاق حائل اللون ذاهلا، فأنشأ يقول:

عرضت على قلبى العزاء فقال لى من الآن فائأس لا أغرُك بالصبر
 إذا بانَ مَنْ تهوى وأصبحَ نائيا فلا شى أجدى من حلولك فى القبر
 وداعِ دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أشجان الفؤاد وما يدرى
 دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائرا كان فى صدرى
 دعا باسم ليلي ضلل الله سعيه وليلى بأرضٍ عنه نازحة قفّر

ولما هبط من منى قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة وسل الله عز وجل أن يعافيك من حب ليلى، فتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدنى بليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا، وقال فى بعض دعائه:

دعا المحرمون الله يستغفرونه	بمكة وهنا أن تمحى ذنوبها
وناديت أن يارب أول سؤلتى	لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها
فإن أعط ليلى فى حياتى لا يتب	إلى الله خلق توبة لا أتوبها
وكم قاتل قد قال تب فعصيته	وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيا نفس صبرا لست والله فاعلمى	بأول نفس غاب عنها حبيبها

وهام من حينئذ واختلط عقله، فكان ينطلق فى الصحراء مع الوحش، لا يأكل إلا ما يبت فى الصحراء من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها. وطال شعر جسده ورأسه وألفته الوحوش فكانت لا تنفر منه.

مع نوفل بن مساحق ثانية

لم يزل نوفل بن مساحق من يوم ذهابه مع قيس إلى أهل ليلى يخطبها له منهم متطلبا لأخباره جامعا لأشعاره ويقال إنه سأل عنه فى سنة من السنين، فقال له أهله: توحش وما لنا به عهد ولا ندرى إلى أين صار فخرج من عندهم وأوغل فى البادية يتصيد الوحش، ومعه جماعة من أصحابه، حتى إذا كان ببعض النواحي إذا هو بأراكة (شجرة كبيرة) عظيمة وقد بدا منها قطيع ظباء وفيها شخص إنسان يرى من خلل تلك الأراكة، فعجب أصحابه من ذلك، وعرفه نوفل. فنزل عن دابته وتخفف من ثيابه وخرج يمشى رويدا، حتى أتى الأراكة، فارتقى حتى صار فى أعلاها، وأشرف عليه وعلى الظباء، فإذا به قد تدلى الشعر على وجهه. فلم يكده يعرفه إلا بعد تأمل شديد، وهو يرتعى من ثمر تلك الأراكة، فرفع رأسه، فتمثل نوفل ببيت من شعره:

أتبكي على ليلى ونفسك باعدت مزارك من ليلى وشعبا كما معا
فنفرت الظباء واندفع فى باقى القصيدة ينشدها، فى أحسن نغمة وأجمل صوت،
وهو يقول:

وما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصباية أسعيا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثى على كبدى من خشية أن تصدعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

واستزل فى إنشاد القصيدة، ثم سقط مغشيا عليه، فتمثل نوفل ببعض شعره،
فرفع رأسه إليه، وقال له: من أنت حياك الله؟ فقال: أنا نوفل بن مساحق،
فحياه، ثم سنحت له الظباء، فزكه وقام يعدو فى إثرها لا يلوى على شىء.
ومضى نوفل إلى أصحابه فحدثهم بما كان من أمره معه.

نهاية المجنون

ظل قيس يهيم فى فيافى نجد مع الوحوش، وكان يقترب أحيانا من حمى بنى
عامر، فيتعهده أهله ويرسلون إليه بالطعام مع حاضنة له كان يأنس لها. وروى
أصحاب الأخبار أن رجلا من قبيلة بنى مرة خرج إلى أرض بنى عامر ليلقاه،
فلما سألهم عنه دلوه على فتى من الحى كان له صديقا، وقالوا إنه لا يأنس إلا به
ولا يأخذ أشعاره عنه إلا هو. فأتاه، فسأله أن يدلّه عليه، فقال له: إن كنت تريد
شعره فكل شعر قاله إلى أمس عندى وأنا ذاهب إليه غدا، فإن كان قال شيئا
أنتك به. فقال له: بل إنى أريد لقاءه، فقال: إنى إن جئت معك نفر منك ونقر
منى وذهب شعره، فقال له: بل دلنى عليه وأنا أذهب إليه وحدى. فقال له:
اطلبه فى هذه الصحارى فإذا رأيته فادن منه مستأنسا ولا تظهر له أنك تهابه،
وستراه يتهددك ويتوعدك بشىء يريد أن يرمىك به، فلا يروعنك، واصرف
بصرك عنه والحظه أحيانا، فإذا رأيته قد سكن من نفاره، فأنشده شعرا غزلا فإنه

يسكن إليك.

وخرج الرجل فطلبه يومه إلى العصر، فوجده جالسا على رمل قد خط فيه
ياصبغه خطوطا، فدنا منه غير منقبض فنفر منه نفور الوحش من الإنس وكانت
إلى جانبه أحجار، فتناول حجرا منها، فأعرض عنه الرجل. ومكث قيس ساعة
كأنه نافر يريد القيام. ولما طال جلوس الرجل سكن فأقبل يخط ياصبغه، فاتجه
إليه، وقال: أحسن والله من يقول:

وإني لَمُفْنِ دَمَعِ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ حِدَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنِ

فأقبل على الرجل يبكي حتى ظن أن نفسه قد فاضت وحتى رأى دموعه قد
بلت الرمل الذي بين يديه، وأنشأ يقول:

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي بِقَوْلِ يُجِلُّ الْوَحْشَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ
تَنَاءَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِي حِيلَةٌ وَخَلَّفْتَ مَا خَلَّفْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن الرجل، وعاد إليه من
غد فطلبه فلم يجده، وجاءت حاضنته التي تأتيه بالطعام فوجدت ما تركته له
بالأمس على حاله. ولما كان في اليوم الثالث غدا عليه وجاء أهله معه فطلبوه
جميعا، فلم يجدوه، وفي اليوم الرابع تتبعوا أثره حتى وجدوه في واد كثير
الحجارة وهو ميت بين تلك الحجارة، فاحتملوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه.

فجميعة أهله به

لم تبق فتاة من بنى عامر إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه، واجتمع
فتيان الحى يكون عليه أحر بكاء وينشجون أشد نشيج، وحضرهم حتى ليلى
معزين وأبوا معهم، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه، وجعل يقول: ما
علمت أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكنى كنت امرأ عربيا أخاف العار وقبح

الأحدوثة فزوجتها وخرجت عن يدي، ولو علمت أن أمره يجري على هذا ما أخرجتها عن يده ولاحتملت ما كان في ذلك. وما رُئى يوم كان أكثر باكية وباكية على ميت منه، ويقال إنهم لما حملوه وجدوا خرقة كتب فيها:

ألا أيها الشيخُ الذي ما بنا يرضى شقيتَ ولا هُنيتَ من عيشك الحَفْضا
شقيتَ كما أشقيتني وتركتني أهيمُ مع الهلاكِ لا أطعمُ الغمضا

موت ليلي

لما بلغ ليلي نبأ وفاة المجنون بكته بكاء مرا، وظلت تندبه أياما، وراجعها زوجها "ورد"، فلم تستمع إليه، بل تمادت في حزنها، فقال لها غاضبا: والله لقد هممت بتخلية سيلك، فقالت: لوددت أنك فعلت وأنى عمياء، فوالله ما تزوجتك رغبة فيك، ولقد كنت آليت على نفسي أن لا أتزوج غير قيس أبدا، ولكن أبي غلبني على أمرى، ووالله إنى لزائرة قبر قيس وفاء له. وتجهزت للمسير، ورحلت، حتى نزلت فى منازل قوم المجنون، فرآها أهلها، فجاءوها مسلمين، فسألتهن عن قبره، فعرفوها به، فذهبت إليه وبكت وناحت بقول المجنون:

لقد عيّنتى يا حبَّ لَيْلى فقَعُ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أيسرُ من حياةٍ منغصّةٍ لها طعمُ الشتاتِ
وقالَ الآمرونَ تعزُّ عنها فقلتُ نعم إذا حانتُ وفاتى

ثم قالت: أما أنى لا أتعزى عنك يا حبيبي ولا أسلوك أبدا، وأنت ورفعت صوتها تقول:

أبلى الثرى وترابُ الأرضِ جدته وزادنى الموتُ أشجانا على شجنى
أبكى عليه حيننا حين أذكره حينَ والهةٍ حنتُ إلى سكنِ

أبكى على من حَتَّ ظهري مصيبتُهُ وَطَيَّرَ النومَ عن عيني وأرقني
والله لا أنسَ حبي الدهر ما سَجَعْتُ حمامةً أو بكى طَيْرٌ على فننِ

وجعلت تتردد على قبره أياما، وتمكث عنده باكية إلى الغروب. وأتاها زوجها، فاعتذر لها، وبالغ في اعتذاره، فلم تقبل منه، وظلت أربعين يوما تخرج إلى قبر قيس وتندبه، حتى إذا كان اليوم الأخير زادت في البكاء والعويل، وألصقت خدها مرارا بالقبر وهي تصيح بأعلى صوتها:

كفى حَزْنا أنى أروح بحسرةٍ وأغدو على قبرٍ ومن فيه لا يدري
فيا نفس ذوقى حَتْفَ عمرك عنده ولا تبخلى بالله يا نفس بالعمر
فما كان يابى أن يجود بنفسه ليفدينى لو كنت صاحبة القبر

وأغرقت في الندب والنحيب، وانكبت على القبر تقبله وتعانقه، ثم شهقت شهقة مديدة، وصمتت إلى الأبد. وحُرَّكت، فإذا هي قد ماتت.

جَمِيلٌ وَبُثَيْنَةٌ

أول الحب

في مساكن بنى عدرة حول تيماء ووادي القرى بشمالى الحجاز نشأ جميل وبثينة، وأول ما كان من تعلق جميل بصاحبته أنه أقبل يوماً يابل له حتى أوردتها ماء فى واد يسمى وادى بغيض، وكان ينزل به قوم بثينة، وتصادف أن كانت هى وإحدى صواحبها تردان الماء، تستقيان منه، فمرتا على بعير له، فنفرهما، فتعرضت لجميل ببعض القول، فوقعت من حينئذ فى نفسه، وأخذ ينظم فيها بعض غزله ونسيبه.

ولما عرفت بثينة أن جيلاً أحبها ونسب بها حلفت لا يأتها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه أبداً، فكان يأتها عند غفلات الرجال، فيتحدث إليها ومع أخواتها، وظلا على ذلك حيناً طويلاً يتلاقيان ويتشاكيان الهوى.

بأعين أبيها وأخيها

وسعت جارية لبثينة بها إلى أبيها وأخيها، وقالت لهما إنها واعدت جيلاً الليلة، وهى معه الآن، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياها جالسا بعيداً عنها بحيث تسمع حديثه، وهو يشكو إليها بته ووجهه، وفى أثناء حديثه قال لها: يا بثينة أرايت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزيه؟ قالت: بماذا؟ قال: هم يكون بين المتحابين، فأنكرت عليه قوله. فقال: والله ما أردت قبيحا، إنما أردت أن أبلوك، ولو رأيت منك مساعدة لى لضربتك بسيفى هذا وهجرتك هجر الأبد، أو ما سمعت قولى:

وإني لأرضى من بُثينةِ بالذى لو ابصرهُ الواشى لقرتُ بلابلهُ
 بلا، وبأن لا أستطيع، وبألمى وبالأملِ المرجوِّ قد خابَ آملهُ
 وبالنظرةِ العجلى وبالحوّلِ تنقضى أوأخرهُ لا تلتقى وأوائله
 فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما وجدنا عليهما من ريبة، وانصرفا وتركاهما.
 والتفت جميل إلى بثينة وقال:

لقد قلت فى حبي لكم وصبابتى محاسنَ شعرٍ ذكرهن يطولُ
 فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى هبوبَ الصبا يا بشن كيف أقول
 فما غاب عن عيني خيالك لحظةً ولا زال عنها، والخيالُ يزول
 وما زالا يتحدثان حتى أصبحتا فودعها وداع الحب الوامق.

هجر ثم وصل

وحدث يوماً أن أقبلت بثينة على فتى من عشيرتها، لئرى أثر هذا الإقبال فى
 نفس جميل، فأنشدتوا:

وعُدنا كأننا لم يكن بيننا هوى وصار الذى حلّ الحبال هوى لها
 وقالوا نراها يا جميلُ تبدلتُ وغيرها الواشى فقلت: لعلها
 وذهب يندب حظه فى أشعار كثيرة، يذكر فيها هجرها وأنها لم تحافظ على
 عهدتها له، وقال فيما قال:

يا ليتنى ألقى المنية بغتةً إن كان يومٌ لقائكم لم يُقدِرِ
 أو أستطيع تجلداً من ذكركم فيفريق بعض صبابتى وتفكرى
 يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صدأى صدك بين الأقبُرِ
 ورقت له، فواعدته، والتقى، وأخذ كل منهما يشكو صاحبه، وقد بلغ الأمر
 من جميل كل مبلغ، فأنشأ يقول:

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عنوةً وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هيا
 وإنى لتسني الحفيظةُ كلما لقيتُك يوماً أن أبثك ما ييا
 فالتفتت بثينة إلى مولاة لها كانت معها وقالت لها: ما أحسن الصدق بأهله،
 ونظرت إلى جميل وقالت له: أنشدني قولك:

تظل وراء السِّترِ ترنو بلحظها إذا مرَّ من أترابها من يروقها
 فأنشدها إياها فبكت، وقالت: كلا يا جميل ومن ترى أنه يروقي غيرك.

أهل بثينة يمنعون جميلاً من لقائها

شاع شعر جميل في بثينة، وكان من عادة العرب حين يكثر شاعر من غزل
 بفتاة أن يمنعوه من لقائها حتى لا يفضحهم بها، فتعرض له أبوها وأخوها
 يتهددانه بالقتل إن هو عاد إلى صوته بها وفضيحتها في أحياء العرب. فكان
 يقول: والله القتل أحبُّ إليَّ من عدم لقائها، وإنى لأتمنى الموت فيها وينشد:

فليت رجلاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بشينَ لُقوني
 إذا ما رأوني طالعا من ثنيةٍ يقولون: من هذا وقد عرفوني
 يقولون لي: أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي ساعةً قتلوني

وكانوا كلما نعى إليهم أنه قريب من دارهم حرسوها ومنعوها من لقائه،
 فكان يظن أنها هجرته، وكان نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له إنها مشغولة
 بغيرك، وإنما حصلت منها على الباطل والكذب، وغيرها أولى بوصلك منها،
 كما أن غيرك يحظى بها، فكان يقول:

منيّتي فلويتِ ما منيتني وجعلتِ عاجلاً ما وعدتِ كآجلِ
 وتثاقلتِ لما رأتِ كلفي بها أحبُّ إليّ بذلك من متثاقلِ
 وأطعتِ في عواذلا فهجرتني وعصيتُ فيك وقد جهدتِ عواذلي

حاولتني لأبتّ حبّ وصالكم منى، ولست وإن جهّذن بفاعلٍ
ويقلن إنك قد رضيتَ بباطلٍ منها فهل لك في اجتناب الباطلِ
ولباطلٍ مما أحبُّ حديثه أشهى إلى من البغيض الباذلِ
ليُزلن عنك هواي ثم يصلنني وإذا هويتُ فما هواي بزائلِ

لقاء على غير موعد

ظل جميل ممنوعاً من لقاء بثينة مدة وهو لا يتعرض لها بجهد، فلا يصل إليها، وبينما هو ذات ليلة جالس في أشجار بالقرب من حبيها، وقد أقام فيها ثلاث ليال ينتظرها، وإذا بشخص قد أقبل إليه، فانتضى سيفه خائفاً، وإذا هي بثينة، فتعانقا طويلاً. وجلسا صامتين، وجميل لا يستطيع أن يحدثها ولا أن يراجعها كلمة حتى أسفر الصبح، فودع كل منهما صاحبه، ولم يلبث أن ذكر ما كان فيه فقال:

وإن تكُ قد شطّت نواها وقد نأت فإن النوى مما تُثبتُ وتجمعُ
وإن يك طولُ الحب يا قلب نافعى فقد طالما أحبيت والصبر أنفع
ولست كمن يُفشى على الخدن سرّه وعندى له فى الصدر سرٌّ وموضع
وأنسى إذا لاقيتها بخلاها من القول ما قد كنت بالأمس أجمعُ
فيا رب حبينى إليها وأعطنى الـ مودة منها أنت تعطى وتمنعُ
وإلا فصبرنى وإن كنت كارها فإلى بها يا ذا المعارج مولعُ
وفى الصبر عن بعض المطامع راحةً إذا لم يكن فى الشئ ترجوه مطمعُ

رسول إلى بثينة

كان كثير صاحب عزة يألف جيلاً ويلزمه، فلقيه يوماً، فقال له: من أين أقلت؟ فقال: من عند أبى الحبيبة - يعنى بثينة - فقال له: وإلى أين تمضى؟

فقال إلى الحبيبة - يعنى عزة - فقال له: لا بد من أن ترجع عودك على بدئك، فتأخذ لي موعداً من بثينة، فقال كثير: عهدى بها وبأبيها الساعة، وأستحي أن أرجع، فقال جميل: لا بد من ذلك. فقال له كثير: فمتى كان آخر عهدك بها؟ قال جميل: في أول الصيف، وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدؤم، إذ خرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابا، فلما أبصرتني أنكرتني، وضربت بيديها إلى ثوب في الماء فغطت نفسها به، وعرفتني الجارية فأعادت الثوب في الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس. وسألتها موعداً، فقالت: أهلى سيرتحلون عن قريب. وما وجدت أحداً آمنه فأرسله إليها. فقال كثير له: فهل لك في أن آتى الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها؟ قال جميل: ذلك الصواب. فأرسله إليها، فقال له كثير: انتظرني.

ثم خرج كثير حتى أناخ بدار بثينة ناقته، ورآه أبوها، فقال له: ما وراءك؟ قال كثير: ثلاثة أبيات عرضت لي فأحبت أن أعرضها عليك، قال هاتها، قال كثير: فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عزّ أرسل صاحبي إليك رسولا والموكل مُرسلُ
بأن تجعلى بينى وبينك موعدا وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعال
وآخر عهدى منك يوم لقيتني بأسفل وادى الدوم والثوب يغسلُ

فضربت بثينة جانب صدرها، وقالت: احسأ، احسأ، فقال أبوها: ما الذى بك يا بثينة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء الرابية. ثم قالت للجارية: ابغينا من الدؤمات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك.

وراح كثير إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدؤمات. وقالت بثينة لبنات خالتها: أم الحسين وليلى ونجية وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن:

إني قد رأيت في لحن نشيد كثير أن جميلا معه. وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة ومن معها، فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت مجلسا قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر، ما أدري أيهما كان أفهم.

مبارزة

خطب جميل بثينة من أبيها فرده، لكراهة العرب أن يزوجوا بناتهم ممن يشهرون بهن ويتغزلون فيهن، فخطبها ابن عم لها يسمى نبيها، فوعده أبوه أن يزوجها منه، غير أنها لم ترضه لنفسها إذ كان قبيحا دميما في إحدى عينيه نكتة بياض قبيحة. وحدث أن خرج جميل وابنا عمه: روق ومسعدة وخرج معهما نبيه إلى الصيد، فمر بهم رجل من قبيلة خزاعة كان قويا يهوى المبارزة والمصارعة، فقال له نبيه: هل لك في مصارعتي؟ قال: ذلك إليك، فتصارعا، فصرعه الخزاعي وجلس على صدره. فضحك جميل وصاحبه من ذلك، فقام نبيه إلى الخزاعي، فقال له: عاودني، فقال: لا أفعل، فتعلّق به. فقال له جميل: ماذا تريد من الرجل؟ طالبتة بالصراع، فصرعك، والمعاودة إليه إن أرادها، وإلا فلا سبيل لك عليه. قال: أفتصارعني يا جميل؟ قال: وما تريد بذلك؟ قال: أحبه وأشتهيه. قال جميل: فوالله مالك فيه خير، فإن أحببته على ذلك فهلّم.

وتصارعا فصرعه جميل. ثم سأله المعاودة فصرعه ثانية، ثم سأله المعاودة الثالثة فصرعه. وقام نبيه فانصرف إلى الحى مغضبا، وأقام جميل مع ابني عمه على صيدهم. وسأل فتيان العشيرة نبيها عن سبب رجوعه دون أصحابه، فقال: دعاني جميل إلى المصارعة، فكرهت ذلك، ثم ألح على، فصارعته، فصرعته، فوثب على ابنا عمه، فنجاني عنه وألقياه على صدري، فرجعت مغضبا. فقالوا له: ما كان ينبغي لك أن تصارع ابن عمك. وإذ قد جرى هذا فلا ينبغي لك أن

تفيض في ذكره ولا تعيده. ولكنه مضى يذيع ذلك فقالت بثينة: كذب والله نبيه لو صرع جميلا ما غم وجهه وتكدر ولكن جميلا صرعه، فجاء مغضبا، وتضحكت به هي ونساء الحي. وعاد جميل وصاحباها فتحدثوا بالخبر على وجهه الصحيح.

زواج بثينة

أخ نبيه منذ صرعه جميل على أبي بثينة أن يزوجها منه، وبذل له مالا عظيما وكان كثير المال، فتزوجها ودخل بها على كره منها. ولما بلغ ذلك جميلا وعرف أنها لم تغد من حظه بكى أحر بكاء، وأنشد:

أعاذلَ قد أكثرت جهلا من الجهل على غير شئ من ملامى ومن عدلى
ولو تركتُ عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فياربُّ ما وقَّيت شيئا فوقها حُتوفَ الردى يا ربِّ واجمع بها شلى
فأنتِ حديث النفس إن كنت خاليا وجلُّ حديثى أنت فى الجد والهزل
فلا تقتلينى يا بئسَ فلم أصبُ من الأمر ما فيه يحلّ لكم قتلى
ويا رب لا تجعلْ بثينة شقوة على ولا تجعل بهجرانها قنلى

بثينة لا تنساه

ما برحت بثينة بعد زواجها تذكّر جميلا وتسال عن شعره الذى ينظمه فى هواها، وكان لا يزال يلم ببيتها فرأته جارية لها فلم يكلمها ولا أعلمها أنه قصد صاحبته، وجلس غير بعيد مستظلا بشجرة. فبادرت الجارية إلى بثينة فأعلمتها. فجاءت هى وبعض بنات خالتها: أم الحسين ولىلى ومعهن عجوز تسمى أم منظور، فلما رأينه سلّمن عليه وجلس إليهن، فقالت له أم منظور: أين كنت بعدنا؟ لقد طال شوقنا إليك فقال: كنت فى أهلى إذ رأيت التباعد عما أحدث

أجمل. فبكت بثينة وقالت: لكننا والله ما تباعدنا منك ولا زادتنا الليالي إلا شوقاً إليك وتجديدا لمودتك وتحديثاً ببقية يومهما، وسألته أن ينشدها بعض ما أحدث من شعره فقال:

ألا هل إلى إمامة أن أُلَمَّها بثينة يوماً في الحياة سبيلُ
فإن هي قالت: لا سبيل فقل لها: عناءُ علي العذرى منك طويلُ
على حين يسلو الناس عن طلب الصبَا وينسى أتباع الوصل منه خليلُ
فبكت وجزعت، ثم قالت له: إني أعجب مما تتمناه في قولك،

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها

ويحك! ما حملك على هذه الأمنية، أو ليس في سعة العافية ما يكفيننا. وأمسى المساء فتركها وانصرف.

ليلة مع بثينة

رصد جميل بثينة ذات ليلة، حتى إذا صادف منها خلوة تنكر ودنا منها، وذلك في ليلة ظلماء ذات غيم ورعد وريح، فحذفها بحصاة فأصابته بعض صواحبه ففزعت وقالت: والله ما حذفني في هذا الوقت بحصاة إلا الجن فقالت لها بثينة وقد فطنت: إن جميلاً فعل ذلك، فانصرفي يا أختي إلى خباتك حتى ننام، فانصرفت، وبقيت مع بثينة العجوز أم منظور وابنة خالتها أم الجسير. فقامت معهما إلى جميل، فأدخلنه الخباء، وكان زوجها غائباً، فدخل وهو ينشد:

لها في سواد القلب بالحب مِيعَةٌ هي الموتُ أو كادت على الموت تُشرفُ
وما ذكرتكِ النفسُ يا بَئِنَ مرةً من الدهرِ إلا كادتِ النفسُ تتلفُ
وإلا اعزَّتني زفرةٌ واستكائةٌ وجاد لها سَجَلٌ من الدمع يذرفُ
وما استطرقتُ نفسي حديثاً خلَّةٌ أُسرُّ به إلا حديثك أطرفُ

وتحدثا طويلا حتى أخذهما النوم.

وجاء غلام زوجها بصبح من اللبن، فرآها نائمة وبالقرب منها جميل، فمضى لوجهه يخبر أهلها ولقيته أختها ليلي والصبح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجارية لها، وقالت احذرى جيلا وبثينة، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت، وقالت: يا جميل نفسك نفسك قد جاء غلام زوجي بصبح من اللبن فرآنا نائمين. فقام وودعها وهو يبكي قائلا:

ألا أيها البيتُ الذي حيلَ دونهُ	بنا أنت من بيتِ وأهلك من أهلِ
ثلاثة آياتٍ فيتُ أحبهُ	وبيتان ليسا من هوائِ ولا شكلي
كلانا بكى أو كاد يبكي صباةً	إلى إلفه واستعجلتُ عبرةً قبلي
خيليتُ فيما عشتُما هل رأيتُما	قتيلا بكى من حبِّ قاتله قبلي

أهل بثينة يطاردونه

وذكر رجل من بني عذرة أنه كان جالسا يوما مع جميل وهما يتحدثان وإذا وجهه يكفه، فأنكره ورأى منه غير ما كان يرى، ووثب جميل نافرا مشعث الشعر متغير اللون، فأتى بناقة له قوية موثقة الخلق، فشدَّ عليها رحله، ثم أتى بقدح فيه لبن فشربه وجاء الرجل بقدح آخر، ثم قال له: اشدد جملك واتبعنى فإني ذاهب إلى بعض مدهبي، ففعل ما طلبه إليه. فسارا حتى انتهيا إلى منازل قوم، لم يجدا بها أحدا من الرجال، إذ كانوا في نجعة، وقد خلفوا النساء وراءهم، فمال جميل إليهن، فلما رأينه عرفنه، وكانت فيهن صاحبه بثينة. وبينما هو يحدثهن إذا الرجال قد أقبلوا، فقلن له: ويحك: انج بنفسك وبصاحبك، فلم يلتفت إلى ما قلن. وغشيه رجال الحى فجعلوا يرمونه ويطردونه. فانصرف بصاحبه ومضى به حتى رجع إلى أهله.

وعد لا يتحقق

وزار جميل بثينة ذات يوم فنزل قريبا من ماء عشيرتها (البئر التى يشربون منها) يتصد جارية لها فلم يكن نزوله بعيدا من ورود جارية حبشية لها، ومعها قربة، وكانت به عارفة وما بينه وبين بثينة. فسلمت عليه وجلست معه، وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويحدثها بخبره بعدها، ويحملها رسائله. ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه إلى بثينة وتأخذ موعدا عليها، فوعده بتحقق ذلك. وانصرفت إلى أهلها وقد أبطأت عليهم. فلقبها أبو بثينة وزوجها وأخوها، فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم وتعللت، فضربوها ضربا مبرحا، فأعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه.

ومر بهم فى تلك الحال فتبان من بنى عذرة فسمعا القصة كلها وعرفا الموضوع الذى فيه جميل، فأحبا أن يبطا عنه أهل بثينة، فقللا لهم: إنكم إن لقيتم جميلا وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم فى ذلك كل مكروه، وأهل جميل شجعان أشداء، لا يتركون ثأرهم، فدعوا الجارية توصل خاتمه إلى بثينة. فإذا زارها صنعتهم ما شئتم، قالوا: صدقتما إن هذا هو الرأى. فدفعوا الخاتم إلى الجارية وأمروها بإيصاله وحذروها أن تخبر بثينة بأنهم علموا القصة، ففعلت، ولم تعلم بثينة بما جرى. ومضى الفتيان فأندرا جميلا، فقال: والله ما أرهبهم وإن فى كنانتي ثلاثين سهما، والله لا يخطئ كل واحد منها رجلا منهم، وهذا سيفى والله ما أنا رعى اليد ولا جبان الجنان. فناشده الله وقال: البقية أصلح، فتقيم عندنا فى بيوتنا حتى ينتهى طلبهم لك، ثم نبعث إليها فتزورك وتنصرف سليما غير معيب. فقال: أما الآن فابعثا إليها من يندرها، فأتياه بجارية هما وقالا له: قل ما حاجتك؟ فقال: ادخلى إليها وقولى لها: إنى أردت اقتناص ظبى فحذره ذلك جماعة، وقالوا له: إياك، ففاتنى الليلة.

فمضت الجارية فأعلمت بثينة ما قال لها جميل، فعرفت قصته، وسألت أهلها

فعرفوا الخبر، فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح مكانها، ومضوا يقتصون أثره، فلم يجدوه، فعرفوا أنه قد فاتهم. وظل جميل عند صاحبيه أياما ينتظر لقاء بثينة، فلم يتحقق له ما شاء، ولا استطاع صاحباه أن يسعفاه، فتركهما ومضى على وجهه وهو ينشد:

ألا من لقلبٍ لا يَمَلّ قِيدُهُلْ	أَفِقْ فَالْتَعَزَى عن بثينة أَجْمَلْ
وإنّ التي أَحْبَبْتَ قد حِيلَ دونها	فَكُنْ حازِماً ، والحازم المتحوّل
سلا كلُّ ذى وُدٍّ علمتُ مكانه	وأنتَ بها حتى المماتِ موكَّلْ
فيا قلبُ دَعْ ذِكْرِي بثينة إنْها	وإن كنت تهاوها تَضنُّ وتبخل
وما هو إلا أن أهيمَ بذكرها	ويحظى بِجَدِّواها سواى وَيَجْدَلْ
وآخر عهدى من بثينة نظرة	على موقفٍ كادت من البين تَقْتُلْ
وإني لأستبكي إذا ذُكِرَ الهوى	إليكِ وإنى من هواك لأَوْجَلْ
إذا ما كررتُ الطَّرْفَ نُحوكِ رَدَّهُ	من البعد قِيَّاضٌ من الدمع يَهْمِلْ

مساعدة ولقاء

شكا زوج بثينة إلى أبيها وأخيها إمام جميل بيبتها وبها، فوجهوا إلى جميل وأعدروا إليه وشكوه إلى عشيرته وتوعدوه ، وأتى جميل أهله فلاموه وعنفوه وقالوا له: إنا نستحلف إليهم ونتبرأ منك ومن جريرتك (جنائتك) ، فأقام مدة لا يلم بها. ثم لقي ابني عمه: روقا ومسعودا فشكا إليهما ما به ، وأنشدهما قوله:

زورا بثينةً والحبيب مزورٌ	إن الزيارةً للحبيب يسيرٌ
إني عشيةً رحمتُ وهى حزينَةٌ	تشكو إلى صبايةً لصبور
وتقول بتّ عندى فديتُك ليلةً	أشكو إليك فإن ذاك يسير
غراءً ميسامٌ كأنّ حديثها	دُرٌّ تحنُّرٌ نَظْمُهُ منشورٌ

لا مثلها حُسْنٌ ولا كدلالها ذلٌ ولا كوقارها توقيرٌ
ولئن جَزَيْتِ الوُدَّ منى مثله إني بذلك يا بُشَيْنِ جديراً

فقال له روق: إنك لعاجز ضعيف في حبك لهذه المرأة وترك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك بين ذل لا أحبه لك أو كمد يوديك إلى التلف أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعدارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت، فبكى وأنشد:

لقد لامنى فيها أخٌ ذو قرابةٍ حبيبٌ إليه فى ملامته رُشدى
وقال أفقٌ حتى متى ألت هائمٌ بيثنةً فيها قد تعيد وقد تُبدى
وإن يكُ رُشداً حُبها أو غوايةً فقد جنته ما كان منى على عمدي
لقد لَجَّ ميثاقٌ من الله بيننا وليس لمن لم يوف الله من عهدِ
أفى الناس أمثالي أحبوا فحُبهم كحبي أم أحببتُ من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى
إذا ما دنت زدت اشتياقا وإن نأت جزعتُ لنأى الدار منها وللبعدِ
وكلُّ محبٍّ لم يَزِدْ فوقَ جُهدِهِ وقد زدتها فى الحب منى على الجهدِ

ثم التفت إلى ابن عمه وقال له: يا أخى لو ملكت اختياري لكان ما قلت صواباً، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً، ولقد جئتك لأمر أسألك أن لا تكثُر ما رجوته عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك فى مساعدتى، فقال له: فإن كنت لا بد مهلكا نفسك فاعمل على زيارتها ليلاً فإنها تخرج مع بنات عمها إلى ملعب هن، فأجى معك حينئذ سرا، ولى صديق من عشيرة بثينة ناوى عنده نهاراً وأسأله مساعدتك على هذا، فتقيم عنده أياماً نهاراً وتجتمع معها بالليل، فشكره.

ومضى روق إلى الرجل الذي من رهط بثينة فأخبره الخبر، واستعده كتمانته، وسأله مساعدته فيه، فقال له: لقد جئتني يا حدى العظامم ويحك ! إن فى هذا معاداتي الحىّ جميعا إن فطن أحد به. فقال روق: أنا أتخوز فى أمره من أن يظهر. فوعده بذلك. ومضى روق إلى جميل فأخبره بالقصة ، فأتيا الرجل فأقاما عنده، وأرسل إلى بثينة بجارية له بخاتم جميل، فدفعته إليها. فلما رأته عرفته. وتبعتهما فجاءته، فتحدثا ليلتهما ، وكذلك فى ليلتين ثانية وثالثة. ثم ودعها وقال لها: عن غير بغض والله ولا ملل كان وداعى إياك . وشكر لمضيفه وانصرف مع ابن عمه.

فى زى راع

جاء جميل إلى بثينة وقد اتخذ ثياب راع من رعاة الحىّ، فلم يعرفه أحد، ووجد عند زوجها ضيفانا له، فانتبذ ناحية، وسألته جارية من أنت؟ فقال: مسكين. وجلس وحده، وطعم الضيفان طعام العشاء وتعشى وحده.

وبينما بثينة جالسة مع جواربها على صلاء النار وقد اضطجع الضيفان، وهم منتحون فى جانب من البيت، فقال جميل:

هل البائسُ المقرور دانٍ فمُصْطَلٍ من النار أو مُعْطَى لحافاً فلابسُ

فقالت بثينة لجارتيتها: صوت جميل والله اذهبى فانظرى. فرجعت إليها فقالت: هو والله جميل، قد جاء فى ثياب راع. فشهقت بثينة شهقة سمعها القوم فأقبلوا يهرعون إليها، وقالوا لها ما لك: فطرحت ثوبا من حرير فى النار وقالت: احترق ثوبى. فرجع القوم وأرسلت جارتيتها إلى جميل، فتواعدا، وخرجت له، وبث كل منهما صاحبه وجده. وما زالا حتى برق الصباح فودعها وهو يبكى أحراً بكاء. ويقول:

ألا أيُّها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى أخا كلفٍ يُغْرِى بِحُبِّ كَمَا أُغْرِى
هي البدر حسنا والنساء كواكبٌ وشتان ما بين الكواكب والبدرِ

أبو جميل ينصحه

شكا زوج بثينة وأهلها جميلا إلى الوالى فأباح لهم قتله إن وجدوه مع بثينة، فأعدروا إلى أهله مرارا وهو لا يرعوى ولا يزدجر عن الإلمام بدار صاحبتة. ولما أعياهم أمره توجهوا إلى أبيه فناشدوه الله والرحم، وسألوه كفَّ ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به فى بثينة، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع، ثم انصرفوا. فدعا به، فقال له: يا بنى حتى متى أنت فى ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل تغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعليها ما تضمرة الحرة لمن ملكها، فقوها لك إنما هو تعليل وغرور. إن هذا لذل لك وضميم. وما أعرف أخيب حضا ولا أضيع عمرا منك، فأنشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك، وإنك تعلم أن ما قلته حق، ولو كان لك سبيل إليها لبدلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به ممن قُدِّر له، وفى النساء عوض. فقال له جميل: الرأى ما رأيت والقول كما قلت، فهل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لقضاء قُدِّر لى. وأنا سأمتنع من طروق هذا الحى والإلمام بهم ولو مت كمدا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه. وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه.

جميل يحاول السلوان

لما خاف جميل على نفسه من قوم بثينة ونصحه أبوه ووعدته أن يمتنع من الإلمام بحبها فكر ماذا يصنع، وهداه تفكيره أن يرحل إلى الشام ويعدح خلفاء بنى

أمية، فيصلوه، ولعله ينسى صاحبتة. ومدحهم ونال جوائزهم وظلت ذكرى
بثينة لا تفارقه، وطالما أنشد:

منع النومَ شدةُ الإشتياقِ واذكَّارُ الحبيبِ يومَ الفراقِ
ولقد قلتُ يومَ نادى المنادى مستحجًّا برحلةٍ وانطلاقِ
ليت لي اليومَ يا بثينةُ منكم مجلسا للوداعِ قبل الفراقِ

وعاد أدراجه إلى قومه. وبلغ بثينة أنه عاد، فراسلته مع بعض نساء الحى
تذكر شوقها إليه ووجدها به، وواعدته لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدثها
طويلا. وعرف أهلها أنها لقيته، فرصدوها وشددوا عليها حتى لا تغافلهم وتلقاه.

حيلة فى اللقاء

انقطع التلاقي بين جميل وبثينة مدة، فركب بعيره، وخرج إلى الصحراء يروح
عن نفسه، فلقي رجلا من بنى حنظلة فقال له: ممن أنت يا عبد الله، فقال: رجل
من بنى حنظلة، فقال: انتسب، فانتسب له. فقال له: هل لك فى خير تصطنعه
إلى، فوالله لو أعطيتنى كل ما ترعى من إبلك ما كنت بأشكر منى لك عليه،
فقال الرجل: نعم ومن أنت أولا؟ فقال له: لا تسألنى من أنا، ولا أخبرك، غير
أنى رجل بينى وبين هذه العشيرة التى تنزل وراء هذا السفح القريب الذى تراه
ما يكون بين بنى العم من بعض الموجدة فإن رأيت أن تأتيهم فإنك تجدهم فى
مجلسهم فتنادى وتسألهم ناقة بيضاء غفلا من العلامات، فإن ذكروا لك شيئا
فذاك، وإلا فاستأذنهم فى المرور بخيام الحى فإن المرأة والصبى قد يريان ما لا
يرى الرجال، فتسألهم، ولا تدع أحدا تصيبه عينك ولا خيمة من خيامهم إلا
طلبتها فيه.

فأتى الرجل القوم، فإذا هم مجتمعون على بعير ذجوه، يقتسمونه، فسلم
وانتسب لهم ونشدهم (سألهم) ضالته، فلم يذكروا له شيئا ولا أنهم رأوها،

فاستأذنتهم فى الخيام، وقال إن الصبى والمرأة يريان ما لا يرى الرجال، فأذنوا له، فأتى أقصاها خيمة، واستقراها خباء خباء، ينشد الناقة، فلا يجيبه أحد، حتى إذا انتصف النهار وآذاه حر الشمس وعطش وذهب لينصرف حانت منه التفاتة، فإذا بثلاثة خيام، فقال فى نفسه: ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم، ثم رجع فقال: سوءة! وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل مالى، ثم آتته فأقول: عجزت عن ثلاثة خيام. فانصرف عامدا إلى أعظمها خيمة، فسلم وسمع من يرد عليه السلام، وذكر ضالته، فخرجت إليه امرأة، وقالت له: يا عبد الله قد أصبت ضالتك، وما أظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب، فقال: أجل، فدخلت، فأنته بصحفة مفضضة، فيها تمر، وقدح مفضض فيه لبن، وقالت له: دونك، فتجمع وشرب من اللبن حتى روى، فقال لها: يا أمة الله، والله ما أتيت اليوم أكرم منك ولا أحق بالفضل، فهل ذكرت من ضالتي شيئا، فقالت: هل ترى هذه الشجرة فوق التل؟ فقال: نعم، قالت: فإن الشمس غربت أمس وهى تطيف حولها، ثم حال الليل بينى وبينها فلم أعرف عنها شيئا.

فقام الرجل وجزاها الخير وقال: والله لقد تغذيت ورويت، فخرج حتى أتى الشجرة، فأطاف بها، فلم ير للناقة من أثر، فأتى صاحبه، فإذا هو متلفع بكسائه فى الإبل يغنى ببعض الشعر، فقال له: السلام عليك، قال: وعليك السلام، ما وراءك؟ فقال الرجل: ما ورائى من شىء، قال لا عليك، فأخبرنى بما فعلت، فقص عليه القصة، حتى انتهى إلى ذكر المرأة وأخبره بالذى صنعت معنه، فقال: قد أصبت ما كنت تطلب، فعجب الرجل من قوله، ثم سأله جميل عن صفة الإناءين: الصحفة والقدح، فوصفهما له، فتتفأس الصعداء وقال: قد أصبت ما كنت تطلب ويحك. ثم ذكر له الرجل الشجرة وأنها رأت الناقة تطيف بها، فقال له: حسبك.

وأمسى مع الرجل حتى أوت إبله إلى مباركها، وما زال معه حتى ظن أنه

نام، فقام إلى حقيبة له، فاستخرج منها ثوبين فلبس أحدهما وتردّى بالآخر، ثم انطلق عامدا نحو الشجرة. وقام الرجل من خلفه، فسار وراءه متخفيا حتى انتهى إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة، فاستتر بهن. ونظر فإذا صاحبة رفيقه عند الشجرة تنتظره، وقد جلست وجلس جميل منها غير بعيد، وكان الرجل بحيث يسمعهما. وكان أول ما طرق سمعه سلام جميل عليها وسؤاله عن حالها، سؤالا كريما بعيدا من كل ريبة، وسألته مثل سؤاله. ثم أمرت جارية معها، فقربت إليه طعاما، فلما أكل وفرغ قالت له: أنشدني ما قلت في غربتك، فأنشدها:

ألا ليت رِيحَانَ الشبابِ جديداً	ودهرا تولى يا بُشَيْنَ يعودُ
فَنَعْنَى كما كنا نكونُ وأنتمُ	قريباً وما قد تبدلنا زهيدا
ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً	بوادى القُرى إنى إذن لسعيد
وهل ألقينُ فرداً بثينة مرةً	تجود لنا من ودّها ونجود
فقد تلتقى الأشتات بعد تفرُّق	وقد تُدرِكُ الحاجاتُ وهى بعيد
علقتُ الهوى منها وليداً فلم يزلْ	إلى اليوم يَنمى حبُّها ويزيد
وأفيت عمري فى انتظارِ نوالها	وأبليتُ فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى	من الحب قالت ثابتاً ويزيدُ
وإن قلت رُدّى بعض عقلى أعشُ به	مع الناس قالت ذلك منك بعيدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً	ولا حبُّها فيما يببُّ يببُّ
وقلت لها: بينى وبينك فاعلمي	من الله ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حبيكم طريفاً وتالداً	وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليدُ
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها	ويحيا إذا فارقتها فيعود

فقالت له: أحسنتَ ولا فُضُّ فوك. ولم يزالا يتحدثان ما يقولان هُجراً ولا سوءا إلى الصباح، فودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ثم انصرفا، فقام الرجل فمضى إلى إبله، واضطجع نائما، فجاء جميل، فقال له: حتى متى تنام، فقام

الرجل وتوضأ وصلى وحلب إبله وأعانه جميل، وما لبث أن حدثه حديثه وانتسب له، فعرف أنه جميل وأن المرأة بثينة، وقال له: إنى قلت أبياتا فى منصرفى من عندها، فهل لك أن تذهب إليها وتنشدها؟ وقال الرجل نعم، فأنشده:

ألا ياليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً كلَّيلتينا حتى نرى ساطع الفجرِ
ولو سألتُ منى حياتى بذلتها وجُدْتُ بها لو كان ذلك من أمرى

ثم ودعه وانصرف. فذهب الرجل إلى خباء ليلى وسلم فبرزت له، فأنشدها البيتان فدمعت عينها، ودعته فأكرمه.

الوداع الأخير

أقام جميل مدة طويلة لا يستطيع الإمام بدار بثينة ولا لقاءها، وكان قد أضناه الجوى وأسقمه، فعزم على المضى إلى بلد ناء بعيد، لعله يتعزى عنها أو يسلوها. وكان الناس يكثرون من الحديث عن عبد العزيز بن مروان والى مصر وكرمه وكثرة بذله وعطائه للشعراء، فعزم جميل على الرحيل إليه، ولكنه فكر فى بثينة وفى هذا الفراق الطويل، فمضى قاصداً إلى حيفا غير آبه بما قد يلقى من مكروه، وكانت جالسة أمام خبائها مع بعض صواحبها، وإذا برجل قد أقبل عليها، فسلم، وردت السلام وتأملمته، فإذا هو جميل، فقالت دهشة: أجميل؟ فقال: نعم، فقالت: فيم جئت؟ قال: جئت أحدث عهداً بك وإنى راحل إلى مصر، وتحدثا ساعة، ثم ودعها وهو يبكى منشداً:

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها يلدان فى الدنيا ويغبطان
أصلّى فأبكى فى الصلاة لذكرها لى الويلُ مما يكتب الملكان
ضممتُ لها أن لا أهيمَ بغيرها وقد وثقتُ منى بغير ضمان
ألا يا عبادَ الله قوموا لتسمعوا شكاية معشوقين يشتكيان
يعيشان فى الدنيا غريبين أينما أقاما وفى الأعوام يلتقيان

طائف

انتجع حتى بثينة موضعا في البادية، وبينما هي في هودج تسير ليلا، إذا بهاتف ينشد قول جميل:

رحل الخليطُ جماهم بسوادٍ وحدًا على أثر البخيلة حادى
ما إن شعرتُ ولا علمتُ بيئهم حتى سمعتُ به الغرابَ ينادى

فلم تتمالك أن رمت بنفسها وأهلها ينظرون، وبقيت تطلب المنشد فلا تقف عليه، فنادت: أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه؟ فلم يجيبها مجيب، فنادت ثلاثا وفي كل ذلك لا يرد عليها أحد شيئا، فقال لها صواحبها: أصابك يا بثينة طائف من الجن، فقالت: كلا لقد سمعت قائلا يقول، وأنشدت البيتين، قلن لها: نحن معك ولم نسمع شيئا. فرجعت وركبت مطيتها وهي حيرى والهة العقل كاسفة البال، ثم سارت القافلة. فلما كان في الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بقول جميل:

أبى القلبُ إلا حبَّ بثنةٍ لم يُرِدْ سواها وحبُّ القلبِ بثنةٌ لا يُجْدَى
إذا ما دنتُ زدت اشتياقا وإن نأت جزعت لنأى الدارِ منها وللبعد

فرمت بنفسها وسعت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقالت: أيها الهاتف ارحم حيرتى وسكن عبرتى وأخبرنى عن جميل، فلم يرد عليها شيئا. فرجعت إلى رحلها وركبت، وسارت وهي ذاهبة العقل، وفي كل ذلك لا يخبرها صواحبها أنهن سمعن شيئا. فلما كانت الليلة الثالثة نزل أهلها فى موضع وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين، فإذا الهاتف يهتف بقول جميل:

لقد فرح الواشون أن قطعتُ حبلَى بثينةٌ أو أبدتُ لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون: مهلا يا جميل وإنى لأقسم ما بى عن بثينة من مهْلِ

فأقبلت نحو الصوت، فلما قربت منه لم تجد أحدا، فعادت وهي تبكى وتقول: تالله إن لجميل نبأ، فقال لها صواحبها: ما هذا يا بثينة؟ وما أصابك؟ إنها

لهواجس مرت ببالك وخيالك فخنفي عن نفسك ولا تظني إلا خيرا.

وفاة جميل

لقى عبد العزيز بن مروان والى مصر جميلا لقاء كريما، ولكن القدر كان له بالمرصاد، فلم يلبث أن مرض مرضا قضى فيه نجه. ولما ثقل عليه المرض عادة رجل من عشيرته، فلما دخل عليه نظر إليه وقال: يا ابن سعد ما تقول في رجل لم يشرب خرا قط ولم يأت محرما قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله منذ خمسين سنة؟ فقال: من الرجل؟ إني أظن والله أنه ناج لأن الله تعالى يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾، قال جميل: أنا هو هذا الرجل، فقال له صاحبه: أتزعم ذلك وأنت تشبب ببئينة منذ عشرين سنة، فقال: أنا في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قط وإن كان أكثر ما كان مني إليها أنى كنت آخذ يدها أضعها على قلبي فأستريح إليها. ثم أغمى على جميل، وأفاق، فأقبل على صاحبه، فقال له: هل لك في أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئا أعهدده إليك. فقال ابن سعد: حبا وكرامة، قال: إذا أنا مت فخذ ثوبي هذا فاعزله جانبا، وكل شئ سواه لك، وارحل إلى رهط بئينة، فإذا صرت بمنزلهم، فاركب ناقتي هذه، ثم البس ثوبي ذاك، واشققه عليك، وصح بهذه الأبيات:

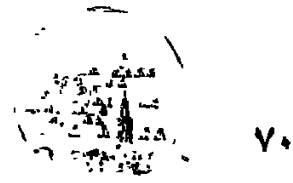
صرخ النعي وما كنتي، بجميل
وئوى بمصر ثواء غير قفول
صرخ النعي بفارس ذي هممة
حلو الشمائل للرجال قفول
قومي بئينة فاندبى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

وأغمى على جميل فمات. فواراه صاحبه التراب، ثم ركب ناقته، وسار بها حتى نزل في رهط بئينة، فشق ثوبه الذي عينه له، وصاح بالأبيات. وسمعتة

بثينة، فصرخت صرخة تنبه عليها الخي، وسقطت لوجهها مغشياً عليها، واجتمع عليها الرجال والنساء يسألونها: ما الخبر؟ فأنشدتهن أبيات جميل، ورفعت صوتها بالعويل والبكاء، وأقام النساء معها ثلاثة أيام، وهي تبكى جميلاً وتندبه، وتحزن الرجال وبكوه وقالوا: يرحمه الله فإنه كان عفيفاً صدوقاً. ولما انتهت الأيام الثلاثة حلفت بثينة أن لا تكتحل بعده ولا تضع مشطاً في رأسها ولا حلية ولا تفرق شعرها ولا تدهنه بطيب ولا تلبس قناعاً مصبوغاً ولا ثوباً منقوشاً. وبقيت تبكيه وتقول:

وإن سلوى عن جميل لساعةً من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمرٍ -إذا مُتْ- بأساء الحياة وليئها

وما زالت تردد هذين البيتين، حتى قضى عليها اليأس والحزن، فلحقت به.



قيس بن ذريح ولبنى

أول الهوى بين قيس ولبنى

كان قيس بن ذريح من قبيلة كنانة، وكانت عشيرته تنزل في ضواحي المدينة، واشتهر بأله رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب، إذ أرضعته أمه في أثناء رضاعها له. وأول ما كان من حبه لبني أنه مر يوماً في بعض حاجته بخيام قبيلة كعب بن خزاعة، وكان الرجال غائبين عن الحى فوقف على خيمة لبني بنت الحباب الكعبية، فاستسقى ماء، فسقته، وخرجت إليه به، وكانت فتاة مديدة القامة حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه. وشرب الماء، فقالت له: أتزل عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها، فدبح له شاة وأكرمه.

وانصرف قيس وفي قلبه من لبني حر لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وذاع بين الناس ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتد وجده بها، فسلم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحفت به، فشكا إليها ما يجد بها وما يلقي من حبه وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه.

زواج العاشقين

ذهب قيس إلى أبيه ذريح وأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه لبني، فأبى عليه، وقال: يا بني، عليك يا حدى بنات عمك، فهن أحق بك. وكان ذريح كثير المال موسراً، فأحب أن لا يخرج ابنه إلى غريبة. ولما سمع قيس من أبيه ذلك ساءه ما خاطبه به. فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يجب. فأتى رضيعه الحسين بن علي وابن أبي عتيق (حفيد أبي بكر الصديق)

وكان صديقه، فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبواه. فقال له الحسين: أنا أكفيك، فمشى معه إلى أبي لبنى. فلما بصر به أعظمه ووثب إليه، وقال له: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟ هلا بعثت إليّ فأتيتك، فقال: إن الذى جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطبا ابنتك لقيس بن ذريح، فقال: يا ابن رسول الله، ما كنا لنعصى لك أمرا وما بنا عن قيس رغبة. ولكنى أحب أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره، فإننا نخاف إن لم يسع أبوه فى هذا أن يكون عارا وسبّة علينا. فأتى الحسين ذريحا وقومه وهم مجتمعون، فقاموا إليه إعظاما له، وقالوا له مثل قول أبي لبنى. فقال الحسين للذريح: أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس. فقال ذريح: السمع والطاعة لأمرك.

وخرج ذريح مع الحسين فى وجوه من قومه، حتى أتوا حىّ لبنى، فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها، فزوجه إياها، وزفت إليه بعد ذلك. وأقاما معا سعيدين لا ينكر أحد منهما من صاحبه شيئا.

غيرة الأم

كان قيس أبر الناس بأمه، فأهنته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه فى نفسها وقالت لأبيه: لقد شغلته هذه المرأة عن برى. وانتظرت حتى مرض قيس مرضا شديدا، فلما برئ من علته قالت لزوجهها ذريح: لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا له، وقد حُرّم الولد من هذه المرأة وأنت ذو مال فيصير مالك إلى أقربائك، فزوجه بغيرها، فلعل الله أن يرزقه ولدا، وألحت عليه فى ذلك. فأمهل قيسا مدة حتى إذا خلا به يوما قال له: يا قيس إنك اعتللت هذه العلة، فخفت عليك، ولا ولد لك ولا لى سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمك، لعل الله أن يهب لك ولدا تقرُّ به عينك وأعيننا، فقال له قيس: لست متزوجا غيرها أبدا. فقال له أبوه: إن

في مالى سعة ، فتزوج معها أخرى ، فقال قيس : لا أسوءها والله بشىء أبدا ، فقال له أبوه : فإنى أقسم عليك إلا طلقتها ، فأبى ، وقال : الموت والله أسهل على من ذلك ، ولكنى أخيرك خصلةً من ثلاث خصال ، قال أبوه : وما هى؟ قال : تتزوج أنت ، ففعل الله أن يرزقك ولداً غيرى ، قال : ما عندى فضلة لذلك . قال قيس لأبيه : فدعنى أرتحل عنك بلبنى واصنع ما كنت صانعا لو مت فى على . قال أبوه : ولا هذه . قال قيس : فأدع لبنى عندك وأرتحل عنك ، فالعلى أسلوها ، فإنى ما أحب بعد أن تكون نفسى طيبة أنها فى خيالى : فقال أبوه : لا أرضى إلا أن تطلقها ، وحلف لا يكّنه (لا يسزّه) سقّف بيت أبدا حتى يطلق لبنى . وكان ذريح يخرج ، فيقف فى حر الشمس ، ويحجّ قيس فيقف إلى جانبه ، فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس ، حتى يسقط الظل ، فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكى معه ، وتقول له : يا قيس لا تطع أباك ، فهلك وأهلك معك ، فيقول : ما كنت لأطيع أحداً فىك أبداً .

طلاق لبنى

مازال أبو قيس وأمه يلحان عليه فى طلاق لبنى ، حتى استجاب إليهما على كره منه ، ولم يكد يصنع حتى طار عقله ولحقه مثل الجنون ، وأخذ الشعر ينفجر على لسانه يعبر به عن لواعج قلبه ، يتأسف ويبكى أشد بكاء ، ويقول :

يقولون لُبْنَى فُتِنَتْ، كُنْتَ قَبْلَهَا	بِخَيْرِ فَلَا تَنْدَمُ عَلَيْهَا وَطَلَّقِ
وَدَدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنَّى عَصَيْتَهُمْ	وَحُمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلِّ مُؤَبِّقِ
وَكَلَّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرَ زَاخِرًا	أَبَيْتُ عَلَى أَثْبَاجِ مَوْجٍ مُغْرَقِ
كَأَنِّي أَرَى النَّاسَ الْإِخْيِينَ بَعْدَهَا	عَصَارَةَ مَاءِ الْحَنْظَلِ الْمُتَفَلِّقِ
وَتُنَكَّرُ عَيْنِي بَعْدَهَا كُلِّ مَنْظَرِ	وَيَكْرَهُ سَمْعِي بَعْدَهَا كُلِّ مَنْطَرِ

ولما علمت لبني بغير طلاقها من قيس أرسلت إلى أبيها فأعلمته الخبر، فأقبل بهودج على ناقه ويابل تحمل أوثانها ورأى ذلك قيس فأقبل على جاريتها، فقال: ويحك ما دهاني فيكم، فقالت له: لا تسألني وسل لبني، فذهب ليلىم بجنائنها فيسألها، فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من عشيرته فقالت له: ما لك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل، وهذه لبني ترتحل الليلة أو غدا، فسقط مغشيا عليه لا يعقل، ثم أفاق وهو ينشد:

وإني لَمُنُّنٌ دمع عَيْنِي بالبكا حِذَارَ الذي قد كان أو هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ فراقٌ حبيبٍ لم يَبْنُ وهو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكون منيتي بكفيلك إلا أن ما حان حائنُ

وسقط غراب قريبا منه، فجعل ينقع مرارا، فتطير منه أشد تطير، ولم يلبث أن قال:

لقد نادى الغرابُ بيِّنَ لبني فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال: غدا تباعدُ دارُ لبني وتناى بعد وُدِّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غرابٍ وكان الدهرَ سعيك في اغترابِ

وأزف وقت الرحيل، ورآها وقومها يدخلونها هودجها فجعل يبكي وينشج أحرّ نشيج، ويقول:

ألا يا غرابَ اليِّنِ ويحك بُني بعلمك من لبني وأنت خيرُ
فإن أنت لم تخبر بما قد علمته فلا طرت إلا والجنحُ كسيرُ
وَدُرْتُ بأعداءٍ حبيبتك فيهم كما قد تراني بالحبيب أدورُ

ولما ارتحل قومها اتبعها مليا، ثم وقف لما يعلم من أن أباه سيمنعه من المسير معها، وأخذ ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه، وهو ينشد:

بانَتْ لِبْنِي فَأَنْتَ الْيَوْمَ مَتَبُولٌ والرأى عندك بعد الحزم مخبولٌ
 أَسْتودِعُ اللهُ لِبْنِي إِذْ تَفَارَقْنِي بالرغم منى وقول الشيخ مفعولٌ
 وكر راجعا، وفي أثناء رجوعه نظر إلى أثر خف بعيرها فأكب عليه يقبله
 ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها. فلامه أهله على ذلك وعنفوه على تقبيل
 التراب، فقال:

وما أحببتُ أرضكمُ ولكن أقبل إثر من وطئ الترابا
 لقد لاقيت من كلفى بلبنى بلاء ما أسيغ به الشرابا
 إذا نادى المنادى باسم لبني عييتُ فما أطيق له جوابا

ولما جنَّ عليه الليل وانفرد وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار وجعل يتململ
 فيه تململ الملدوغ ثم وثب حتى أتى موضع خباتها، فجعل يتمرغ فيه ويكي
 ويقول:

بِتْ وَالهِمُّ يَا لُبَيْنِي ضَجِيعِي وجرت -مذ نأيت عنى- دموعي
 وَتَنَفَّسْتُ إِذْ ذَكَرْتُكَ حَتَّى زالت اليومَ عن فؤادي ضلوعي
 يَا لُبَيْنِي فَدَتِكَ نَفْسِي وَأَهْلِي هل للدهرِ مضى لنا من رجوع

وأصبح فخرج متوجها نحو الطريق الذي سلكته يتنسم روائحها، فسنحت له
 ظبية فقصدها، فهربت منه، فأنشأ يقول:

ألا يا شبه لبني لا تُراعى ولا تسمي قُلَّ القِلاعِ
 وَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أَلُومَ نَفْسِي على شئى وليس بمستطاعِ
 وَقَدْ عَشْنَا نَلْدَ الْعَيْشِ حِينَا لو ان الدهرَ للإنسانِ راعِ
 وَلَكِنْ الْجَمِيعَ إِلَى افْتِرَاقِ وأسبابُ الختوفِ لها دواعِ

وظل يعاتب نفسه فى طاعته أباه فى طلاق لبني، ويقول: ما كان على لو
 اعترلته وأقمت فى حيتها أو فى بعض بوادى العرب أو عصيته فلم أطعه، هذه

جنائتي على نفسي، وها أنذا ميت فمن يرد روحى إلى. وكلما قرَّع نفسه وأنبها
بلون من التقرير والتأيب بكى أحر بكاء وألصق خده بالأرض ووضعته على
آثارها، وقال:

وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

غربان النوى

ظلت لبنى حزينة على قيس بعد رحيلها، لا يهنأ لها عيش، وكانت ما تزال
تسأل عنه من يلم بدارها من عشيرته فيصفون لها تغير حاله وما عليه من الهوى
والصباة بها، فكانت تستنشدهم أشعاره، فينشدونها، وهى تبكى وتنوح على
مصيرها ومصيره، وأنشدت ذات يوم قوله فى غراب البين:

ألا يا غرابَ البينِ قد طرتَ بالذى أحاذر من لُبني فهل أنت واقعُ
قامرت غلاما لها أن لا يرى غراب بين إلا يصيده، وهو غراب أسود صغير،
فكان ما يزال يأتيها ببعض الغربان فتساوفا وتضربها، وتنشد البيت.
وأتاها غلامها يوما بأربعة غربان، فلما رأتهن بكست وصرخت وكتفتهن
وجعلت تضربهن بالسوط، ثم أمسكت بغراب منهن، ففتفت ريشه، وهى
تصيح:

لعمري لقد صاح الغراب بينهم فأوجع قلبي بالحديث الذى يبدى
فقلت له: أفصحت، لا طرتَ بعدها بريشٍ فهل للقلب ويحك من ردُّ

ثم أخذت الثانى فشدت فى رجليه خيطين وباعدت بينهما، وجعلت تقول له:
أتبكى بلا دمع وتفرق بين الألاف بلا حق، فمن أحق بالقتل منك،
وأنشدت:

ظعن الذين فراقهم أتوقّع وجرى بينهم الغرابُ الأبقعُ
فزجرته أن لا يفرّخَ بيضه أبداً ويصبحَ واقعاً يتفجّع
إن الذين نعبتَ لي بفراقهم هم أسهدوا ليلى التمام فأوجعوا

ثم أخذت الثالث فنتفت ريشه، حتى كان لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربته حتى مات، وصاحت تنشد:

ألا يا غرابَ الين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فبين لنا ما قلت إذ أنت واقعٌ وبين لنا ما قلت حين تطير
فإن يك حقاً ما تقول فأصبحتُ همومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسورا عديماً لناصِرٍ كما ليس لي من ظالمٍ نصير

وكسرت جناحه، وأمرت بالرابع فأخذت تضربه حتى مات وأنشدت بأعلى صوتها قول قيس:

لقد نادى الغرابُ بيِّنَ بُني فطار القلب من حدرِ الغرابِ

فدخل أبوها فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما دعاك إلى ما أرى؟ قالت: دعاني أن ابن عمي وحببي قيسا دعا عليهن بالوقوع فلم يقعن. فقال إنك وابن عمك تظلمان الغرابان، ألم تسمعي قول القائل:

نعبَ الغرابُ برؤية الأحبابِ فلذلك صرت أحبُّ كلِّ غرابِ

قالت: ليس البيت يا أباي كما أنشدته، وإنما هو

نعبَ الغرابُ بفرقة الأحبابِ فلذلك صرتُ عدوَّ كلِّ غرابِ

فأليت لا أظفر بغراب إلا قتلته. فأظهر أبوها لها الغضب، وتركها وذهب إلى أمها فشكا لها سوء فعلها وقولها وما تشعر به من حسرة ولوعة.

تأججت نيران الغرام في نفس قيس بن ذريح وقلبه، وكأنا كان طلاقه لبنى
وفراقها له الشرارة التي اندلعت منها هذه النيران، فهي لا تحبو في فؤاده أبداً،
مهما بللتها دموعه، وقد انطلق يصيح:

أحبك أصنافاً من الحبِّ لم أجد لها مثلاً في سائر الناس يُوصفُ
فمنهنَّ حبُّ للحبيب ورحمةٌ بمعرفتي منه بما يتكلفُ
ومنهن أن لا يعرضَ الدهرَ ذكرها على القلب إلا كادت النفس تتلفُ
وحبُّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ وحبُّ لدى نفسي من الروح أطفُ

وظلت ذكرياته العذبة معها لا تبرح ذاكرته، فهي لا تختفي من أمام ناظره،
ولا تختفي عيناها الساحرتان حتى في النوم وإنه لينشد:

وإني لأهوى النومَ في غير حينه لعلَّ لقاءً في المنام يكونُ
تُحدِّثني الأحلامُ أني أراكمُ فيا ليتَ أحلامَ المنام يقين
شهدتُ بأنى لم أحلُ عن مودَّةٍ وأنى بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى سواك وإن قالوا بلى سيّلين

وظل دائم التطلع إلى أيامه الماضية معها، وكان يتحسر على ما فرط من
طلاقها وفراقها ويقول:

أتبكي على لبني وأنت تركتها وأنت تركتها
كأن بلادَ الله ما لم تكن بها كأن بلادَ الله ما لم تكن بها
ألا إنما أبكى لما هو واقعٌ ألا إنما أبكى لما هو واقعٌ
وما كلُّ ما منتك نفسك خالياً وما كلُّ ما منتك نفسك خالياً
نهارى نهارُ الواهين صبايةً نهارى نهارُ الواهين صبايةً
وقد كنتُ قبل اليومِ خلواً وإنما وقد كنتُ قبل اليومِ خلواً وإنما

خروج قيس إلى ديار لبنى

ولما أضمنى الحب قيسا رق له بعض رفاقه القدماء، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديارها لعله يحظى بلقائها، فخرج معهم، وهو ينشد:

لقد عدتني يا حُبُّ لُبْنَى فقَعُ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموت أروحٌ من حياةٍ تدوم على التباعد والشتاتِ

وما زالوا يجذبون في السير حتى انتهوا إلى ديارها، فأقاموا معه حتى لقيها، فلما وقعت عينه عليها حراً مغشياً عليه، ولما أفاق أنشأ يقول:

الله يدري وما يدري به أحدٌ ماذا أجمجم من ذكراك أحيانا
لا يبارك الله فيمن كان يحسبكم إلا على العهد حتى كان ما كانا
إن تصرمي الحبل أو تسمى مفارقةً فالدهر يحدث للإنسان ألوانا

ثم ودعها ومضى مع رفاقه.

لقاء ثان في الحج

وأشار قوم على قيس بالحج لعله يسلو لبني، فحج واتفق أن حجّت هي الأخرى في تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها، فدهش وبقي واقفا مكانه ومضت لسيلها، ثم أرسلت إليه بالمرأة تبلغه السلام وتسأله عن خبره، فوجدته جالسا وحده يبكي وينشد:

ويومٍ مني أعرضت عني فلم أقل بحاجة نفس عند لُبْنَى مقالها
وفي اليأس للنفس المريضة راحةً إذا النفس رأمت خُطّة لا تنالها

ودخلت المرأة خباءه وجعلت تحدثه عن لبني ويحدثها عن نفسه مَلِيًّا، ولم تعلمه أن لبني أرسلتها إليه، فسألها أن تبلغها عنه السلام، فامتعت عليه، فأنشأ يقول:

إذا طلعت شمسُ النهارِ فسَلِمى فأيةُ تسليمى عليكِ طلوعُها
 بعشرِ تحياتٍ إذا الشمسُ أُشْرِقتْ وعشر إذا اصفرَّتْ وحن رجوعُها
 ولو أبلغتها جارةٌ قولى اسَلِمى بكتَ جَزَعاً وارفضَّ منها دموعُها
 وبان الذى تُخفى من الوجدِ فى الحشا إذا جاءها عنى حديثٌ يروغُها

وقضى الناس حجبهم وانصرفوا ولم يأتهم رسول منها، لأن قومها رأوه وعلموا
 به، فخشيت أن ترأسله، فقال:

تُمنِّينى نَيْلاً وتلوينى به ففسى شوقاً كلَّ يوم تقطعُ
 وقلبك قطُّ ما يلين لما يرى فواكبدى قد طال هذا التضرُّعُ
 أخبرت أنى فيك ميّتُ حسرتى فما فاض من عينيك للوجد مدَمَعُ
 ولكن لعمرى قد بكيتك جاهداً وإن كان دائى كله منك أجمع
 وما غشيت عينيك من ذاك عبرةً وعينى على ما بى بذكراك تدمعُ

وبلغتها الأبيات فجزعت جزعا شديدا وبكت بكاء كثيرا. ثم خرجت إليه
 ليلا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقى عليك وأخشى أن يقتلك قومى،
 فانا أتحامك لذلك، ولولا هذا ما افترقنا، وودعته وانصرفت.

مرض قيس

عاد قيس إلى قومه بعد رؤيته لبنى فى الحج وقد سالت نفسه حسرات،
 فأنكروه وسألوه عن حاله، فلم يخبرهم ومرض مرضا شديدا أشرف منه على
 الموت، فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه وناشدوه الله، فقال:
 ويحكم أثرونى أمرضت نفسى أو وجدت لها سلوة لقد اخزت الهم والبلاء
 وهذا ما اختاره لى أبواى وابتليانى به.

ولما رأت أمه تماديه فى مرضه وتعلقه بلبنى أرسلت إليه بفتيات من عشيرته

يعبن عنده لبني ويلمنه على جزعه وبكائه فأثينه واجتمعن حواليه، وجعلن يمازحته ويعبن لبني عنده، فلما أطلن فى ذلك أقبل عليهن وقال:

يَقْرُ بعينى قُرْبُها وَيَزِيدُنِي بها كَلْفًا مَنْ كان عندى يَعِيبُها
وكم قائل قد قال تَبُّ فَعَصِيَّتُهُ وتلك لَعْمَرى توبَةٌ لا أَتوبُها
فيا نفسُ صَبْرًا لستِ واللهِ فاعلمي بأوَّلِ نفسٍ غاب عنها حَبِيبُها

فانصرفن عنه إلى أمه فأياسنها من سلوته.

وصنع أبوه صنيع أمه، فسأل بعض فتيات من الحسى أن يعذنه ويحدثه لعله يتسلى عن لبني أو يتعلق بإحداهن، ففعلن ذلك. ودخل إليه طيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأطلن السؤال عن سبب علتة فقال:

عِيْدَ قيسٍ من حبِّ لبْنى ولبْنى داءٌ قيسٍ والحبُّ داءٌ شديدُ
وإذا عادنى العوائدُ يوماً قالت العين لا أرى من أريدُ
ليت لبْنى تَعُودنى ثم أَقْضى إنها لا تعود فىمن يعودُ
وَبِحَ قيسٍ لقد تضمَّن منها داءٌ خَبِلَ فالقلبُ منه عميدُ

فقال له الطيب: منذ كم هذه العلة؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت، فقال وهو يبكى متحسرا:

تعلق رُوحى روحها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفى المهادِ
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس إذا مُتْنَا بُمُنْصَرِمِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرنا فى ظُلْمَةِ القبرِ واللَّحْدِ

فقال له الطيب: إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوىء والمعائب وما تعافه النفس من بنى آدم، فإن النفس تنفر حينئذ وتسلو ويخف ما بها، فقال يجيبه:

إذا عُبْتُهَا شَبَّهْتُهَا الْبَدْرَ طَالَعَا وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ لَهَا شَبَّهَ الْبَدْرُ
لَقَدْ فَضَّلْتُ لِبْنِي عَلَى النَّاسِ مِثْلَمَا عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فَضَّلْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة فأنبه ولامه وقال له: يا بنى،
الله الله فى نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا، فأنشد:

وفى عُرْوَةَ الْعُدْرَى إِنْ مِتُّ أَسْوَةً وَعَمْرُو بْنُ عَجْلَانَ الَّذِي قَتَلْتُ هَنْدُ
وبى مثلُ ما ماتاً به غيرَ أننى إلى أجلٍ لم يأتنى وقتُه بعدُ
هل الحبُّ إلا عِبْرَةٌ بعدَ زفرةٍ وَحَرٌّ عَلَى الْأَحْشَاءِ لَيْسَ لَهُ بَرْدُ
وفيضُ دموعٍ تَسْتَهْلُ إِذَا بَدَا لَنَا عِلْمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَبْدُو

زواج قيس بأخرى

ولما طال على قيس مرضه أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله
يسلو بها عن لبنى فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا تَقْنَعُ النَّفْسُ بَعْدَهَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مَقْنَعَا
وَأَزْجُرُ عَنْهَا النَّفْسَ إِذْ حِيلَ دُونَهَا وَتَأْتَى إِلَيْهَا النَّفْسُ إِلَّا تَطْلُعَا

فأعلمهم أبوه بما رد عليه، قالوا: فأمره بالمسير فى أحياء العرب والنزول عليهم،
فلعل عينه أن تقع على فتاه تعجبه، فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار حتى نزل
بجى من قبيلة فزارة، فرأى جارية حسناء قد حسرت قناع حرير عن وجهها وهى
كالبدر ليلة تمامه، فقال لها: ما اسمك يا جارية، قالت: لبنى، فسقط على وجهه
مغشياً عليه، فنضحت على وجهه ماء وارتاعت لما عساه، ثم قالت: إن لم يكن
هذا قيس بن ذريح إنه ليجنون! فأفاق، فسألته من هو فعرفها بنفسه، فقالت: لقد
علمت أنك قيس، ولكنى نشدتك بالله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا،
وقدمت إليه طعاما، فأصاب منه قليلا. وركب فأتى على أثره أخ لها كان غائبا،

فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب ناقته حتى رده إلى منزله، وحلف عليه ليقيمن عنده شهرا، فقال له: لقد شققت على ولكنى سأتابع هواك والفتى الفزاري يزداد عجبا بحديثه وعقله وشعره، فعرض عليه الصُّهْرُ، فقال له: يا هذ إن فيك لرغبة، وإنى لمعجب بأختك، ولكنى فى شغل لا يُنتفع بى معه.

ولم يزل الفتى الفزاري يعاوده فى طلب مصاهرته والحى يلومونه ويقولون له قد خشينا أن يصير علينا فعلك سبّة، فقال: دعونى، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام، فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبين الفتى على أخته المسما لبنى، وقال له الفتى: أنا أسوق عنها صداقها (المهر) فقال قيس بن ذريح: أذ والله يا أخى أكثر قومى مالا، فما حاجتك إلى تكلف هذا، أنا سائر إلى قومى وسائق إليها المهر.

وتوجه قيس إلى أهله وأعلم أباه بالذى كان منه، فسره، وساق له مهرا كبيرا فرجع إلى الفزاريين وأقام عندهم حتى أدخلت عليه زوجته. فلم يروه هشا إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها. وأقام على ذلك أياما كثيرة. ثم أعلمهم أنه يريد الرحيل إلى قومه والبقاء عندهم أياما، فأذنوا له فى ذلك.

ومضى قيس إلى المدينة وكان له صديق بها من الأنصار، فأتاه، فأعلمه الأنصارى أن خبير تزويجه بلغ لبنى فغمها وقالت: إنه لغدار، ولقد كنت أمتى من إجابة قومى إلى تزويجى فأنا الآن أجيبهم ما دام قد نكث الوعد ونقض العهد.

زواج لبنى

كان أبو لبنى شكا قيسا إلى معاوية، وقال له إنه يتعرض لابنته بعد طلاقها فكتب معاوية إلى والى المدينة - كما يقال - أن يهدر دمه إن تعرض لها أو

بها وأن يشتد في ذلك، وأمر أباه أن يزوجه رجلًا سماه له من أهل المدينة، فوجهت لبني رسولاً إلى قيس تعلمه ما جرى وتحذره، فقال:

فإن يجبئوها أو يحلّ دون وصلها مقالةً واش أو وعيدُ أمير
 فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يُذهبوا ما قد أجنّ ضميري
 إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى ومن حرق تعادني وزفير
 ومن ألم للحب في باطن الحشا وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصير

وعرض أبو لبني عليها الزواج بالرجل الذي سماه معاوية، فلم تمتنع، لما علمت من زواج قيس، فزوجه أبوها منه، وزفت عليه وكان نساء الحى يتغنين ليلة زفافها:

لُبْنَى زَوْجُهَا أَصْبَحَ لَا حُرَّ يُوَازِيهِ
 لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ بِمَا بَاتَتْ تُنَاجِيهِ
 وَقَيْسٌ مَيِّتٌ حَيٌّ صَرِيحٌ فِي بَوَاكِيهِ
 فَلَا يُبْعِدُهُ اللَّهُ وَبُعْدًا لِنَوَاعِيهِ

وسمع بذلك كله قيس فجزع جزعا شديداً، وركب من فوره حتى أتى ديار قومها، فناداه النساء: ما تصنع الآن ها هنا، وقد رحلت لبني مع زوجها، وأصبح بينكما حجاب صفيق، فبكى وأنشد:

وإن تك لبني قد أتى دون قريها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فإن نسيمَ الجوّ يجمع بيننا ونُبصرُ قرْنِ الشمسِ حين تزولُ
 وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى ونعلم أنا بالنهار نَقِيلُ
 وتجمَعُنَا الأَرْضُ القَرَارُ وفوقنا سماءٌ نرى فيها النجوم تجولُ

وجعل الفتيان يعارضونه بأن لبني تزوجت وانتقلت مع زوجها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خباتها، فنزل عن راحلته، وجعل يتمرغ فيه ويضع خده على

ترايه ويبكى أحرَّ بكاء، ثم قال:

إلى الله أشكو فَقَدْ لُبْنِي كما شكا إلى الله فَقَدْ الوالدينِ يَتِيمُ
يتيمٌ جفاه الأقبون فجسمه نَحِيلٌ وعهدُ الوالدينِ قديم
تهيَّضَنِي من حبِّ لُبْنِي علائقُ وأصنافُ حُبِّ هَوْلُهُن عظيم
ومن يتعلَّقُ حبُّ لُبْنِي فؤاده يَمُتُ أو يَعِشُ ما عاش وهو كَلِيمُ

رسول من لُبْنِي

ولما سمعت لُبْنِي بما حدث من قيس بن ذريح في ديار قومها بعد زواجها أرسلت إليه رسولا وقالت له: استنشده شعره، فإن سألك عن نسبك فانتسب له في بني خزاعة، فإذا أنشدك شعرا في، فقل له: لم تزوجت بعدها حتى أجابت إلى أن تزوج بعدك؟ واحفظ ما يقوله لك حتى ترده علي. فاتاه الرسول فسلم وانتسب خزاعيا وذكر أنه من أهل الشام واستنشده، فأنشده قوله:

تكاد بلادُ الله يا أمَّ مَعْمَرٍ بما رَحَّبْتُ يوماً على تَضْيِيقُ
تكذبني بالودِّ لُبْنِي وليتها تُكَلِّفُ مني مثله فتدوقُ
وإني وإن حاولت صرمتي وهجرتي عليك من أحداثِ الرَّدَى لشفيق
ولم أرَ أياماً كآيامنا التي مَرَرْنَا علينا والزمان أنيق
وحدَّثتني يا قلبُ أنك صابرٌ على البين من لُبْنِي فسوف تدوق
فمُتَّ كمداً أو عِشْ سقيماً فإنما تكلفني ما لا أراك تطيق
وإن تك لما تسَلُّ عنها فإنني بها مُغْرَمٌ صبُّ الفؤادِ مشوق
سعى الدهرُ والواشون بيني وبينها ففُطِعَ حبلُ الوصلِ وهو وثيق

فقال له الرجل: فلم تزوجت بعدها؟ فأخبره الخبر وحلف له أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التي تزوجها وأنه لو رآها في نسوة ما عرفها وأنه ما مدَّ يدا

إليها ولا كلمها. فقال له الرجل: فإني جار لها، وإنها من الوجد بك على حال قد تمنى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلح حالها بك، فحملني إليها ما شئت أؤديه إليها، فقال قيس له: تعود إلي إذا أردت الرحيل، فعاد إليه لما عزم على الرحيل، فقال: تقول لها:

ألا حتى بُنِي اليوم إن كنت غاديا	وَأَلِمَّ بِهَا مِنْ قَبْلِ أَلَا تَلَاقِيَا
وإن أحيى أو أهلك فلست بزائل	لكم حافظاً ما بل ريق لسانيا
أصونك عن بعض الأمور مِضْنَةً	وأخشى عليك الكاشحين الأعاديا
تساقطُ نفسى حين ألقاك أنفساً	يردُنْ فما يصنُرُنْ إلا صواديا
وبين الحشا والنحر منى حرارة	ولو عتة وجد ترك القلب ساهيا
جزعتُ عليها لو أرى لى مجزعا	وأفريتُ دمع العين لو كان فانيا
تمرُّ الليلى والشهور ولا أرى	ولو عى بها يزدادُ إلا تماديا
ألا إنها صدت وحملت من هوى	لها ما يؤود الشاخات الرواسيا

لقاء على غير وعد

أخذ قيس بعض إبل له، وتوجه بها إلى المدينة لبييعها، ويقضى بثمانها بعض حوائجها، وقدم المدينة، وبينما هو يعرض إبله إذ ساومه زوج لبنى فى ناقة من نوقه وهما لا يتعارفان، فباعه إياها، فقال له إذا كان غد فأتني فى دارى، فاقبض الثمن، ووصف له داره. ومضى زوج لبنى إليها فقال لها: إني ابتعت ناقة من رجل من أهل البادية وهو يأتينا غدا ليقبض ثمنها، فأعدى له طعاما، ففعلت.

فلما كان من الغد جاء قيس فصوت بالخادم: قولى لسيدك: صاحب الناقة بالباب. فعرفت لبنى صوته، فلم تقل شيئا، فقال زوجها للخادم: قولى له: ادخل، فدخل، فجلس. فقالت لبنى للخادم: قولى له يا فتى ما لى أراك أشعث أغبر؟ فقالت له ذلك، فتنفس، ثم قال لها: هكذا تكون حال من فارق الأحبة

واختار الموت على الحياة وبكى. فقالت لها لبنى: قولى له: حَدَّثْنَا حَدِيثَكَ. فلما ابتداء يحدث به كشفت لبنى الحجاب، وقالت له: حسبك قد عرفنا حديثك.

وبهت قيس ساعة لا يتكلم، ثم انفجر باكيا ونهض فخرج، فناداه زوج لبنى، ويحك ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك، وإن شئت زدناك. فلم يرد عليه، وخرج فركب بعيره ومضى. وقالت لبنى لزوجها: ويحك هذا قيس بن ذريح، فقال لها ما عرفته. وجعل قيس يبكى فى طريقه، ويندب نفسه، وينشد:

وكتَ عليها بالَمَلا أنت أقدرُ	أَبكى على لُبْنى وأنت تركتها
على فللدنيا بطونٌ وأظهرُ	فإن تكن الدنيا بلُبْنى تقلبت
وللروح مُرتادٌ وللعين منظرُ	لقد كان فيها للأمانة موضعُ
وللمرح المختال خمرٌ ومُسكر	وللحائم العطشان رىُّ بريقها
إذا ذُكِرَ منها على القلب تخَطُرُ	كأنى فى أرجوحة بين أحبل

زوج لبنى يؤنبها

اشتهر أمر قيس فى المدينة وغنى فى شعره المغنون من أمثال معبد ولم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بشعره فأطربه وحزن لقيس مما به. وجاء لبنى زوجها فأنبها على ذلك وعاتبها، وقال: قد فضحتنى بذكرك، فغضبت، وقالت: يا هذا إنى والله ما تزوجتك رغبة فىك ولا فيما عندك ولا دلس أمرى عليك أحد، ولقد علمت أنى كنت تزوجته قبلك وأنه أكره على طلاقى. والله ما قبلت التزويج إلا بعد أن أهدر السلطان دمه إن ألمَّ بحيننا، فخشيت أن يحمله ما يجد من حبه على المخاطرة، فيقتله أهلى، فتزوجتك. وأمرك الآن إليك، ففارقنى إن شئت. فأمسك عن جوابها ولام نفسه، وجعل يأتها بجوارى المدينة يغنينها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك، فلا ترداد إلا تماديا وبعدا، ولا تزال تبكى كلما سمعت شيئا من شعره أحرَّ بكاء وأشجاء.

قيس يعود إلى المدينة

لما عاد قيس إلى قومه بعد ما كان من لقائه للبنى ، وتركه لثمن ناقته دون أن يقبضه اشتد به الحنين إليها، وعاوده المرض الذى كان ألم به، وأصبح لا يفيق من غشيانه وخفقانه، فكانت فتيات الحى يعدنه ويعدلنه، فيقول:

إذا أمرتني العاذلاتُ بهجرها أبتُ كبدٌ عما يُقلنُ صديقُ
وكيف أُطيع العاذلاتِ وذكرها يؤرّقنى والعاذلاتُ هجوعُ

ولما طالت علته قال له أبوه: إنى لأعلم أن شفاءك فى القرب من لبنى فارحل إلى المدينة، فرحل إليها، وكان يعرف فيها جارية من الموالى تزوجت بسيد من سادة قريش، وكانت من أطرف النساء وأكرمهن، وكانت تسمى بركة، فأتى دار الضيافة التى لزوجها ، فوثب غلمانها إلى رحل قيس ليحطوه، فقال: لا تفعلوا فلست نازلا إلا أن ألقى السيدة بركة، فإنى قصدتها فى حاجة، فإن وجدت لها عندها موضعا نزلت وإلا رحلت، فأخبروها، فخرجت إليه ورحبت به وقالت: حاجتك مقضيه كائنه ما كانت، فانزل ، فنزل ودنا منها فقال: أنا قيس بن ذريح، قالت: حياك الله، إن ذكرك لجديد عندنا فى كل وقت، اذكر حاجتك ، قال: حاجتى أن أرى لبنى نظرة واحدة ، قالت: ذلك لك على. فنزل بهم وأقام عندها وأخفت أمره وزارت لبنى مرارا وتلطفت لها بالهدايا ، ثم قالت لزوجها: أخبرنى عنك هل أنت خير من زوجى؟ فقال: لا، قالت فلبنى خير منى؟ قال: لا، قالت: فما بالى أزورها ولا تزورنى، قال: ذلك إليها، فسألته الزيارة وأعلمتها أن قيسا فى ضيافتها وأن كل مناه أن يراها نظرة واحدة، فأسرعت إلى ذلك وأتها. فلما رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان. ثم جعلت تسأله عن خبره وعلته فيخبرها، ويسألها فتخبره ثم قالت له: أنشدنى ما قلت فى علتك الأخيرة، فأنشدها قوله:

أعاجُ من نفسى بقايا حُشاشةٍ على رَمَقٍ والعائداتُ تعودُ
 فإن ذُكرتُ لبني هَشَشْتُ لذكرها كما هَشَّ لَلثَنَى الدَّرورِ وليدُ
 أجيبُ بلُبنى من دعائى تجلداً وبى زَفَرَاتُ تَجَلَى وتعود
 تُعيد إلى روحى الحياةَ وإننى بنفسى لو عاينيتنى لأجود
 ألا لیت أياماً مضينَ تعود فإنْ غَدُنَّ يوماً إننى لسعيدُ
 كَأنى من لُبنى سليمٍ مُسهَّدُ يَظَلُّ على أيدى الرجالِ يَميدُ
 فلا اليأسُ يُسَلِّينى ولا القربُ نافعى ولبنى مَنوعُ ما تكاد تجود
 رَمَتنى لُبنى فى الفؤادِ بسهمها وسهمُ لبني للفؤادِ صيود
 سَلا كُلُّ ذى شَجْوٍ علمتُ مكانه وقلبي للبنى ما حَيَّتْ ودود
 وقائلةٌ قد مات أو هو مَيِّتُ وللنفسِ منى أن تَفِيضَ رصيدُ

وعاتبته على تزوجه، فحلف أنه لم ينظر إلى من تزوجها ملء عينيه ولا دنا منها فصدقته. ولم يزل يومه معها يحدثها، ويشكو إليها أعفً شكوى وأكرم حديث حتى أمسى. فانصرفت ووعده الرجوع إليه من غد فلم ترجع. وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا. فكتب الأبيات التالية فى رقعة، وأرسل بها إليها:

بنفسى مَنْ قَلْبى له الدَّهْرَ ذَاكِرُ وَمَنْ هو عَنى مُعْرَضُ القَلْبِ صَابِرُ
 وَمَنْ حُبُّه يَزِدَادَ عِنْدَى جِدَّةُ وَحُبِّى لَدَيْهِ مُنْخَلَقُ العَهْدِ دَاثِرُ

وبلغ أهل زوجته الثانية خبره وإمامه بلبنى، فكاتبوه فى ذلك وعاتبوه. فقال للرسول: قل لأخيها: ماغررته من نفسى، ولقد أعلمته أنى مشغول عن كل أحد، وقد جعلت أمر أخته إليه، فليمض فيه من حكمه ما يرى. فتكرّم الفتى عن أن يفرق بينهما، ولم تلبث أن ماتت.

لبنى تعود إلى قيس

اجتمع الحسين بن على بن أبى طالب وأخوه الحسن وابن أبى عتيق وجماعة

من قريش وتواعدوا على يوم يذهبون فيه إلى زوج لبنى، لعله يردها على قيس. فلما رأهم أعظم مصيرهم إليه وأكبره، فقالوا: لقد جئناك بأجمعنا في حاجة، فقال هي مقضية كائنة ما كانت من ملك أو مال أو أهل. فقالوا: تهب لنا زوجتك لبنى وتطلقها. قال: فإني أشهدكم أنها طالق ثلاثاً، فعوضوه منها مالا كثيراً. ثم سأل القوم أباهما فردها على قيس. وما زالت عنده حتى ماتت، وتبعها يوم موتها يندبها ويبكيها ويقول:

ماتت لُبْنَى فموتُها موتى هل تنفَعنُ حسرتى على الفؤتِ
وسوف أبكى بكاءً مكشِبِ قضى حياةً وجداً على مَيِّتِ

ثم أكبَّ على القبر يبكى حتى أغمى عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلاً لا يفيق ولا يجيب مكلماً ثلاثة أيام حتى مات، فدفن بجوارها.

عُرْوَةُ بِنِ حِزَامٍ وَعَفْرَاءُ

بدء الحب

كان عروة بن حزام من بنى عذرة، مات أبوه وعمره أربع سنوات، فكفله عمه عقال بن مهاصر، فنشأ في حجره مع ابنته عفراء يلعبان ويكونان معا، حتى ألفت كل منهما صاحبه إلفا شديدا، وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفه لابنته: أبشر، فإن عفراء زوجتك إن شاء الله. فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال فأتى عمه لها يقال لها هند، وقال لها في بعض ما قال: يا عمه إنى لمكلمك وإنى لمستح منك، ولكنى لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه، فاذهبي إلى عمى عقال واخطبي لى عفراء منه. فذهبت العمه إلى أخيها، فقالت له: يا أخى قد أتيتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها الرد، فإن الله يأجرك نصلة رحمك بى على ما أسألك، فقال لها: قولى فلن تسألى حاجة إلا وفيتها لك. فقالت: تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء، فقال: ما بى عنه مذهب، ولا هو شخص يرغب عنه، ولا بى عنه رغبة، ولكنه ليس بلدى مال، وليس هناك وجه للسرعة، فلنترك الأمر حتى يصيب بعض المال.

وكانت أم عفراء سيئة الرأى فى عروة، وكانت تريد لابنتها رجلا موسرا ذا مال، وكان يطمعها فى أميتها أن ابنتها على حظ وافر من الحسن والجمال. وبلغ عروة أشده، وعرف أن شابا موسرا من ذوى قرياه يريد أن يخطبها لنفسه، فأتى عمه، وقال له: يا عم قد عرفت حقى وقرايتى وأنى ولدك وربيت فى حجرك وقد بلغنى أن شخصا جاءك يخطب عفراء، فإن أسعفته برغبته قتلتنى، فأنشدك الله ورحمى وحقى، فرق له، وقال له: يا بنى أنت معدم وحالنا قريبة من حالك، ولست مخرجها إلى سواك، إلا أن أمها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال

فأسع في الأرض واسترزق الله تعالى، لعلك تصيب ما تحقق به أمنيته. فجاء إلى أمها وتلطف لها فأبت أن تجيبه إلا بما تريده من المهر الغالي على أن يسوق إليها هي شطرا كبيرا منه، فوعدها ذلك، وانصرف.

السفر إلى إيران

عرف عروة إنه لا تنفعه قرابة عند عمه وزوجته، وأنه لا سبيل له إلى عفراء إلا أن يحصل على مال وفير، ففكر في قصد ابن عم له ثرى كان مقيما في بلدة الري بإيران، وعرض فكرته على عمه عقال وزوجته، فوافقاه على عزمه، ووعداه أن لا يزوجا عفراء غيره حتى يعود. وفي ليلة رحيله صار إلى ابنة عمه، فجلس عندها ومعها فتيات من الحى، وظلوا يتحدثون، حتى جاء الصباح، فودعها وودع صواحبها، وودع الحى جميعه.

وكان له رفيقان يالفهما، فصحباه في رحلته الطويلة، وشد كل منهم على راحلته، وكان في طول سفره ساهيا يكلمانه، فلا يفهم، حتى يرد عليه القول مرارا، إذ كان فكره دائما في عفراء، وكان كثيرا ما ينشد:

تحمّلتُ من عفراء ما ليس لى به ولا للجبال الراسيات يدان
فيا رب أنت المستعان على الذى تحمّلت من عفراء منذ زمان
كان قِطاةً عُلقتُ بجناحها على كبدى من شِدَّة الحُفقان

وكانا يعزّيانه ويقولان له إن أمنيته منها ستتحقق، فلا يكف عن ذكرها وترداد اسمها، وما أصابه من جها، وبراها من عشقها، ويقول:

متى تكشفنا عنى القميصَ تبيّنا بى الضرّ من عفراء يا فتیان
إذا تريا لحمًا قليلاً وأعظما بلين وقلباً دائمَ الحُفقان
وقد تركنتى ما أعى لحدّثِ حديثاً وإن ناجيته ونجائى

على كبدي من حبِّ عفراء قَرْحَةً وعيناي من وجدى بها غَرْقَانِ

وما زال فى هيامه وذكره لصاحبه حتى قدم على ابن عمه، فلقبه وعرفه حاله وما قدم له، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها إلى أهله وقومه.

نقض العهد

تصادف أن رجلا من أهل الشام من بنى أمية نزل فى حى عفراء فنحر بعيرا للناس ووهب وأطعم، وكان ظاهر الثراء، وبينما هو فى بعض مجالسه، إذ رأى عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميا تحمل إناء سمن وعليها إزار حرير أخضر، فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة، فسأل عنها، فعرف أنها ابنة عقال، فخطبها منه، فاعتذر إليه، وقال: لقد سبقك إليها ابن أخ لى يعدلها عندى، وما لغيره إليها سبيل، فقال له: إني أرغبك فى المهر، فقال عقال: لا حاجة لى بذلك. فعدل الأموى إلى أمها فوجد عندها قبولا، لماله وبذله وكرمه، فوعده أن تكون من نصيبه، وجاءت إلى زوجها فتلطفت له، ثم قالت فى أثناء حديثها معه: أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه، وقد جاءها الغنى والشراء يطرقان عليها بابها، ووالله ما ندرى أعروة حى أم ميت، وهل ينقلب إلينا بمال أو لا، فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ورزقا سنيا. ولم تنزل به حتى قال لها: إن عاد الأموى لى خاطبا أجبتة، فوجهت إلى الرجل من ساعتها أن غداً إلى عقال خاطبا. فلما كان من غد نحر (ذبح) عدة من الإبل وأطعم الناس وفرق عليهم الأموال، وكان قد دعا الحى جميعه وفيهم عقال، فلما أكلوا أعاد القول فى الخطبة، فأجابه عقال وساق الرجل مهرا كبيرا قررت له عين الأم، أما عفراء فكانت تنشد:

يا عُرْوَةَ إِن الْحَىِّ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَ الْإِلَهِ وَحَاوَلُوا الْغَدْرَا

ولما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام في بني عدرة ثلاثة أيام، ثم ارتحل إلى الشام مع صاحبتة.

عودة عروة

فكر عقال كيف يلقي عروة، وهداه تفكيره إلى أن يحتال عليه، فعمد إلى قبر عتيق، فجدده وسواه، وسأل الحَيَّ كتمان أمرها. وقدم عروة بعد أيام، فعاها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القبر، فمكث يختلف إليه وهو يمن ويتفجع، وكان يأتي دارها فيلصق صدره بها، وينتحب أحرَّ انتحاب، فعذله بعض الناس وقالوا له إنك تشرف على التلف، فأنشد:

بِئِ الْيَاسُ وَالِدَاءِ الْهِيَامِ سُقَيْتَهُ فَيَاكَ عَنِي لَا يَكُنْ بِكَ مَا بِيَا

ورقت لحاله بعض فتيات الحَيِّ، فأخبرنه بحقيقة ما كان من عمه وأنه غدر بوعده ولم يوف بعهد، ولما صح عنده ما أنبأته به الفتيات أنشأ يقول:

فيا عمّ يا ذا الغدر لا زلت مبتلى	حليفا لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية	فألزمت قلبي دائم الخفقان
وأورثتني غمًا وكربا وحسرة	وأورثت عيني دائم الهملان
فلا زلت ذا شوقٍ إلى من هويته	وقلبك مقسوما بكل مكان

إلى عفراء بالشام

ولم يلبث عروة أن عزم على الرحلة إلى الشام، لعله يرى عفراء ويشفي غليله بنظرة منها، فركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة واتجه إلى الشام فقدمها، وسأل عن الرجل فأخبره الناس به ودلوه عليه، فقصدته، فأكرمه دون أن يعرفه وأحسن ضيافته، ومكث عنده أياما حتى أنس به. ثم عزم على أن يكشف عن

نفسه لصاحبتة، فقال لجارية لها كانت تقدم إليه اللبن حين يصبح: هل لك فى يد تولينيها؟ قالت: نعم، قال: تدفعين خاتمى هذا إلى مولاتك، فقالت: سوءة لك، أما تستحى من هذا القول؟! فأمسك عنها، ثم أعاد عليها، وقال لها: ويحك هى والله بنت عمى وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس، فاطرحى هذا الخاتم فى قدحها، فإن أنكرت عليك، قولى لها: اصطبح ضيف عندنا قبلك، ولعله سقط منه. فرقت له الجارية وفعلت ما أمرها به. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فى القدح، فعرفته، فشهقت، ثم قالت لجاريته: اصدقينى عن الخبر فصدقته. فلما جاء زوجها قالت له: أتدرى من ضيفك هذا؟ فقال: إنى لا أعرفه، فقالت: إنه عروة بن حزام ابن عمى وقد كتمك نفسه حياء منه. فبعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمانته نفسه إياه، وقال له: بالرحب والسعة، نشدتك الله لا تترك هذا المكان أبدا. وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان، فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وهو يبكى أحر بكاء. ثم تاب إلى رشده، فقال لها: هذا آخر لقائنا، فقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن إلى وأنا خجلان منه، ووالله لا أقيم بعد علمه مكانى، وإنى عالم أنى راحل إلى منيتى، فبكت وبكى وانصرف.

فلما جاء زوجها وعرف أن عروة راحل قال لها: يا عفراء امنعى ابن عمك من الرحيل، فقالت: هو والله لا يمتنع، إنه أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما. فدعاه وقال له: يا أخى اتق الله فى نفسك فقد عرفت خبرك، وإنك إن رحلت تلفت، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا، ولئن شئت لأفارقنها من أجلك، فجزاه خيرا وأثنى عليه وقال: إنما كان الطمع فيها آفتى. والآن قد يئست وحملت نفسى على الصبر فإن اليأس يسلى، ولى أمور ولا بد من رجوعى إليها، فإن وجدت بى قوة عدت إليكم وزرتكم، حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء، فزودوه وأكرموه وشيعوه، ومضى راجعا إلى قومه.

يأس وخبل

وكان عروة يتماسك في أول طريقه إلى قومه، ثم لم يلبث أن أصابه خفقان وغشيان، فكان يلقي على وجهه حمارا لعفراء زودته به، فيفيق، وينشد:

بِنَا مِنْ جَوَى الْأَحْزَانِ وَالْبَعْدِ لَوْعَةٌ تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الشَّفِيقِ تَذُوبُ
وَمَا عَجِبِي مَوْتَ الْمُحِبِّينَ فِي الْهَوَى وَلَكِنْ بَقَاءُ الْعَاشِقِينَ عَجِيبُ

وانتهى إلى أهله، وقد سلب عقله ومسه الخبل، ولم يعد يعي شيئا مما حوله، وأقام أياما لا يتناول طعاما، فخرجوا به ليلة إلى فضاء ليتنزه، فسمع رجلا يقول لابنه: على أي ناقة حملت قِربَ الماء؟ فقال على العفراء (ناقة) ولم يكده عروة يسمع ذلك حتى أغمى عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

وَأِنِّي لَتَعْرُونِي لِلذِّكْرِكِ رِغْدَةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبُ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا أَعْقَبْتُهَا فِي الرِّيَاحِ جَنُوبُ

التداوى من الحب

واشتد الخبل والهديان بعروة كما اشتد به الضنا والنحول حتى لم يكده يبقى منه شيء فقال قوم: إنه مسحور وقال قوم: بل به جنة وقال آخرون: بل هو موسوس، ثم قالوا لأهله: إن في اليمامة (بالجنوب الشرقي من بلاد العرب) عرّافا طبيبا حاذقا يداوى من الجن، وهو أطبُّ الناس، فلو أتيتموه، فلعل الله يشفيه، فساروا إليه من أرض بني عذرة (في شمالي الحجاز) فجعل يسقيه السلوان وهو لا يزداد إلا سقما، فقال له عروة: هل عندك للحب دواء أو رقية، فقال: لا والله. فانصرف عنه مع أهله، وهو يقول:

أَقُولُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لِطَيْبِ
وَمَا بِيَّ مِنْ خَبَلٍ وَلَا مَسِّ جِنَّةٍ وَلَكِنْ عَمِّي يَا أَخِي كَذُوبُ

فواكبدا أمست رُفاتاً كأنما يلدّعها بالموقدات طيبُ
عشية لا عفراءُ منك بعيدةً فتسلو ولا عفراءُ منك قريب

وسمع أهله بعرفاء آخر في الحِجر بالقرب من ديارهم، فقصدوه به، فعالجه، وصنع به مثل صنيع عرفاء اليمامة فلم يزد إلا ضنى وسقما. وقال له عروة: والله ما دائى ودوائى إلا شخص مقيم بالشام، فهو دائى وعنده دوائى وهو الذى أمرضنى وأضناني، فيئس العرفاء من شفائه، ومضى به أهله إلى ديارهم يائسين وهو ينشد فى الحين بعد الحين:

جعلت لعرفاء اليمامة حكمة
فقالا: نعم، نشفى من الداء كله
فما تركا من رُقبة يعلمانها
وقالا: شفاك الله ، والله ما لنا
وعرفاء حِجر إن هما شفيانى
وقاما مع العواد بيتدران
ولا سلوة إلا وقد سقيانى
بما حُملت منك الضلوع يدان

موت العاشقين

ومازال عروة يعانى من حبه، وأهله يعنون به، حتى أصبح خيالا، والناس ينظرون إليه ويتعجبون من أمره، والموت يروح ويغدو بين عينيه. وظل على ذلك الحال حتى فاضت نفسه، وهو يقول:

من كان من أخواتى باكياً أبداً فاليوم إنى أرانى اليوم مقبوضا

وبرزت أخواته فشققن ثيابهن وضربن خدودهن، فأبكين كل من حضر، ومات من يومه. ولما بلغ موته عفراء قالت لزوجها: قد كان من أمر عروة ما بلغك ووالله ما كان ذلك إلا على الحسن الجميل وقد مات بسببى ولا بد لى أن أقيم مأتما عليه وأندبه، فأذن لها فى ذلك. فشددت الرحال إلى قبره وظلت تندبه ثلاثة أيام وهى تنشد:

فلا لقيَ الفتيانُ بعدك راحةً ولا رجعوا من غيبةٍ بِسلامِ
 ولا وضعتُ أنثى تماماً بمثله ولا فَرِحْتُ من بعدهِ بِغلامِ

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتبكي حتى ماتت، فدفنت إلى جانبه، فنبئت من
 القبرين شجرتان، حتى إذا طالتا التفتا، فكان الناس يعجبون من ذلك.

كثير وعزة

ابتداء الحب

كان كثير من قبيلة خزاعة، وكان شاعرا مبدعا، وكانت عزة من قبيلة
ضمرة، وتعلق بها وأكثر فيها من الغزل حتى عرف بها، فسمى كثير عزة،
وكانت أول علاقة له بها أنه خرج خلف غنم يسوقها إلى موضع بالقرب من
المدينة فلما كان بمنازل بني ضمرة مر بنسوة فسألن عن الماء، فقلن لعزة، وهي
جارية قد كعب ثدياها: أرشديه إلى الماء، فأرشدته وأعجبته، وغابت قليلا،
ورجعت إليه وهو يسقى غنمه، فقدمت له طائفة من الدراهم، وقالت: يقلن لك
النسوة: بعنا بهذه الدراهم كبشا من غنمك، فأمر غلاما معه أن يدفع إليها
كبشا، وقال لها: رُدِّي الدراهم وقولي هن: إذا غدوت عليكن اقتضيت حقي.

فلما غدا عليهن في اليوم الثاني جاءت امرأة منهن بدراهمه، فقال: أين
الصبية التي أخذت مني الكبش، قالت: وما تصنع بها؟ إنها عزة وما شأنك؟
فقال: عزة غريمي، ولست آخذ حقي إلا منها، فمزحت معه وقالت: عزة جارية
صغيرة، وليس فيها وفاء لحقك، فأحله على أو على إحدى النسوة اللاتي رأيتن
فإننا أملا به منها وأسرع له أداء، فقال: ما أنا بمحيل حقي عنها وأنشد:

قضى كل ذي دينٍ فوفى غريمه وعزة ممطولٌ مُعنى غريمها

ومضى لوجهه، ثم رجع بعد أن فرغ من بيع غنمه، يسأل عن عزة وينشد:

نظرتُ إليها نظرةً وهي شاخص
على حين أن شبتَ وبان نهودها
من الحفريات البيض ودَّ جليسها
إذا ما انقضتْ أحداثٌ لو تُعيدها
نظرتُ إليها نظرةً ما يسرني
بها حُمُرُ أنعامِ البلادِ وسودها

ولما أبى أن يأخذ الدراهم إلا أن يراها أبرزتها له المرأة وهى كارهة لذلك، وأحبته عزة بعد ذلك أشد من محبته لها.

غلام لكثير مع عزة

وكان لكثير غلام تاجر فباع من عزة بعض سلعه وماطلته مدة وهو لا يعرفها، فقال لها يوما: أنت والله كما قال مولاي كثير:

قضى كل ذى دينٍ فوقى غريمه وعزةٌ ممطولةٌ مُعنى غريمها

فانصرفت عنه خجلة، فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا والله، قالت: فهذه عزة، قال: لا جرم والله لا آخذ منها شيئا أبدا. ورجع إلى مولاه فأخبره بذلك، فأعتقه ووهب له المال الذى كان فى يده.

لقاء

سار كثير إلى صديق من حى عزة فنزل عنده، وتوسل إليه أن يجمعه بعزة، فصار به إلى منزله ، حتى كان العشاء ، فأخذ خاتمه ، وجاء بيتها، فسلم، فخرجت إليه فأعطاه الخاتم، فقالت: أين الموعد؟ فقال: شجرات أبى عبيد الليلة ، ورجع إليه، فأعلمه. فلما جن الليل قال له كثير: انهض بنا ونهض معه فجلسا هناك يتحدثان حتى أقبلت ، فجلست. وتحدث كثير وعزة فأطالا، وأراد الرجل أن يدعهما وشأنهما، فذهب يقوم، فقال له كثير إلى أين تذهب ، فقال: أخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتمان . فقال له كثير: اجلس فوالله ما كان بيننا شى قط. فجلس الرجل وهما يتحدثان وبينهما شجرة عظيمة وهى من ورائها جالسة ، وما زال كذلك حتى برق الصبح، فقامت وودعت وانصرفت.

امتحان

أرادت عزة أن تمتحن كثيرا وترى ما لها عنده، فانتقبت يوما وممرت به، فرآها وهي تبخر في مشيتها، فلم يعرفها، فاتبعها وقال: يا سيدتى قفى حتى أكلمك فإنى لم أر مثلك قط فمن أنت ويحك؟ قالت: ويحك وهل تركت عزة فيك بقية لأحد؟ وإنما لك فى صدق المودة ومحض الخبة والهوى على حسب الذى كنت تبدى لها من ذلك وأكثر، وأين قولك:

إذا وصلتنا خلة كي نُزيلها آيينا وقلنا الحاجبية أولُ

فقال كثير: بأبى أنت وأمى أقصرى وكفى عن ذكرها، واسمعى ما أقول، ثم أنشدها قوله، وقد صنعه توا:

ما وصل عزة إلا وصل غانية فى وصل غانية من وصلها خلفُ

ثم قال لها: هل لك فى المصادقة والمخاللة؟ فقالت: كيف بعد الذى قلته فى عزة وسار فى الناس من غزلك وشعرك، ثم سفرت عن وجهها وقالت: أغدرا وانتكاثا يا فاسق؟! فبهت ولم ينطق بكلمة وتحير وخجل، ثم إنها أخذت فى بيان غدره ونكته وقلة حفاظه ونقضه للعهد والميثاق، ثم قالت: لله جميل حيث يقول:

لحى الله من لا ينفع الودُّ عنده ومن حبله إن مُدَّ غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد حلافٌ بكل يمين

فأنشأ كثير يعتذر إليها ويتصل بالجزال وانكسار، وأخذ يجتال فى دفع زلتها، وهى تؤنبه أعنف تأنيب، وهو يقول لها: ألم تسمعى قرلى:

يزهدنى فى حب عزة معشرُ قلوبهمُ فيها مخالفةٌ قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللبُّ

وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الآذان إلا من القلب
ولم تأبه له، وانصرفت عنه غاضبة.

امتحان ثان

وأرادت عزة امتحان كثير مرة ثانية، فقالت لبثينة صاحبة جميل: تصدئي
لكثير وأطعميه في نفسك حتى أسمع ما يجيبك به، فأقبلت إليه وعزة تمشي
وراءها من بعيد متخفية. وعرضت بثينة على كثير الوصل، فقاربها وهو ينشد:

رمتني على عمدٍ بثينةً بعدما تولى شبابي وأقبلنُ شبابها
بعينين نجلاوين لو رقرقتهما لنجم الثريا لاستهلَّ سحابها

فكشفت عزة وجهها، فبادرها الكلام، وأتم شعره قائلا:

ولكنما ترمين نفسا مريضةً لعزة منها صفوها ولبابها

فضحكت، ثم قالت بثينة: أولى لك مني! لجوت. ومرتا تتضحكان.

عزة تتزوج

تدافعت الريب والشكوك على عزة، وظنت أن كثيرا غير صادق في هواها،
فاحتجبت عنه، وتقدم لها فتى من عشيرتها يطلب الزواج بها فتزوجته. وكان
كثير قد غاب عنها في مديح بعض الرؤساء والحكام، لعله يصيب من المال ما
يمكنه من زواجها، فأصاب خيرا. ثم قدم فوجدها قد تزوجت، فجزع وبكى
أشد بكاء، وكان مما أنشد:

خَلِيلِيَّ هَذَا رَبُّعُ عَزَّةٍ فَأَعْقِلَا بعيريكما ثم ابْكيا حيث حَلَّتِ
وما كنتُ أدري قبل عَزَّةٍ ما البكا ولا موجعاتِ القلب حتى تَوَلَّتِ

كأني أنادى صخرةً حين أعرضتُ من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصمُ زلتِ
صَفُوحاً فما تلقاكِ إلا بخيلةً فَمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ
أصاب الرَّدَى مَنْ كان يهوى لكِ الرَّدَى وَجُنَّ اللواتي قلن عَزَّةً جُنَّتِ
وما أنصفتِ أما النساءِ فَبَغُضتُ إلىَّ وأما بالنوالِ فضنَّتِ

وأصبح لا يهنأ له طعام ولا شراب، حتى أخذه الضنا والسقام، فكان يرحل في الصحراء رحلات بعيدة يطلب السلو والنسيان.

كثير ومجنون ليلي

وخرج كثير مرة يسير في الفيافي، فإذا رجل معه ظبي، فسلم عليه فرد السلام، فقال له: أتطمعني من هذه الظبية التي معك؟ فقال إى والله. فنزل، فعقل ناقته وجلس يحدثه، وإذا هو أحسن خلق الله حديثاً وأرقه وأغزله، وأقبل على الظبية يقول:

أيا شبه ليلي لن تراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديقُ
ويا شبه ليلي لن تزالى بروضةٍ عليك سحابٌ دائمٌ وبروقُ
فديتك من أخذٍ دهاكٍ لحبها فأنتِ ليلي ما حبيتِ طليقُ

ثم أطلقها، فمرت تجرى. فعجب كثير من شأنه، وقال لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل، فلما أمسى قام إلى غار قريب من الموضع وقام معه كثير، فباتا في الغار. فلما أسفر الصباح قام وإذا ظبية تعدو فعدا خلفها حتى أمسك بها ونظر في وجهها ملياً، ثم أطلقها فمرت وأنشأ يقول:

أذهبي في كلاءة الرحمن أنت منى في ذمةٍ وأمان
ترهيبيني والجيد منك كليلى والحشا والنحول والعينان
لا تخافى فلن تفاجى بسوء ما تغنى الحمام فى الأغصان

وظل كثير معه يومه، ولما أمسيا صارا إلى الغار فباتا فيه، ووقعت لهما في الصباح ظبية فوثب المجنون خلفها، حتى أمسكها، وأراد أن يطلقها، فقبض كثير على يده، وقال له: لقد متنا من الجوع وكلما أمسكت بظبية أطلقتها، فنظر في وجهه وعيناه تذرغان وبكى كثير لبكائه، وسأله نسبه، فعرف أنه مجنون ليلي، فودعه، ومضى لوجهه.

عتاب

ومر كثير في بعض غدواته وروحائه على حىّ عزة وهو راكب بعيره، فأراها في نسوة فأقبل عليها وقال: السلام عليك يا عزة، فقالت: عليك السلام يا جمل، فنزل عن الجمل وأطلقه وأنشد:

حَيْتَكَ عَزَّةٌ بَعْدَ الْمَجْرِ وَأَنْصَرَفْتُ	فَحْيٌّ وَيْحَكَ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَمْلُ
لَوْ كُنْتَ حَيَّيْتَهَا مَا زِلْتَ ذَا مِقَّةٍ	عِنْدِي وَمَا مَسَّكَ الْإِدْلَاجُ وَالْعَمَلُ
لَيْتَ التَّحِيَّةَ كَأَلْتِ لِي فَأَشْكُرُهَا	مَكَانَ يَا جَمْلُ حَيَّيْتَ يَا رَجُلُ

فالتفتت إليه معاتبة، وقالت: ويحك ألا تتقى الله، أرايت قولك الذى أشهرتنى به:

بأية ما أتيتك أم عمرو فقمتم لحاجتى والبيت خالى

أخلوت معك فى بيت قط، فقال: لم أقل ذلك أبدا، ولكننى قلت:

وأقسم لو أتيت البحر يوماً لأشرب ما سقتنى من بلال

فقال: أما هذا فنعم، ثم قامت، فمرت إلى خباتها، وهو يتبعها بعينه وبكى وينشد:

الله يعلم لو أردتُ زيادةً في حب عزة ما وجدت مزيدا
 رهبان مَدِين والدين عهدتم سيكون من حذر العذاب قعودا
 لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خَرُّوا لعزة خاشعين سجودا
 واليَّتْ يُنْشَرُ إن تَمَسُّ عظامه مسًا ويخلد إن يراكِ خلودا

في الطريق إلى الحج

حج كثير في سنة من السنين وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحد منهما بصاحبه، فلما كانوا في بعض الطريق أمرها زوجها أن تتباع سمنًا من بعض من في القافلة تصلح به طعاما لأهل رفقته، فجعلت تسأل في القافلة، حتى لقيت كثيرا وكان يرى أسهما له، فلما رآها جعل ينظر إليها وهو مستمر في بربه للسهام، فبرى ساعده وهو لا يشعر فجرى الدم منه، فلما تبينت ذلك أمسكت يده وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها، وقال لها: عم تبحثين، فعرفته بغيتها، وكان عنده قرح سمن فحلف لتأخذنه. فأخذته وجاءت به إلى زوجها. فلما رأى الدم سألها عن خبره فكأتمته، حتى حلف لتصدقنه فصدقته، فحلف لترجعن وتشتمن كثيرا في وجهه، وجاء بها إليه، فوقف على وجهه وهو معها، فسبته وهي تبكي، وعرف كثير سبب بكائها فقال:

يكلّفها الخنزير شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استدلّت
 هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلّت
 وقلت لها يا عَزُّ كل مصيبةٍ إذا وُطِّتْ يوما لها النفسُ ذلّتْ

مرض عزة وموت كثير

ومرضت عزة مرضا شديدا، وسمع بذلك كثير، فجزع عليها جزعا ممضا، وألم بدارها يسأل عنها وينشد هذه الأبيات:

يقولون سوداءُ العيون مريضةٌ فأقبلتُ من أهلى إليها أعودها
فوالله ما أدرى إذا أنا جئتها أأبرئها من دائها أم أزيدها
إذا جئتها وَسَطَ النساءِ منحتها صدودا كأن النفس ليس تريدها
ولى نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها

وعوفيت ليلي، ولم تمض إلا مدة يسيرة، حتى مات كثير، فخرجت عزة إلى
جنازته ومعها كثير من النساء يبكينه ويندبنه ندبا حارا.

تَوْبَةُ وَليْلِ الأَخِيلِيَّةِ

نشأة الهوى

كان توبة شابا شجاعا مبرزاً في قومه آل خفاجة سخياً فصيحاً مشهوراً بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وكان قومه ينزلون في بادية الحجاز مجاورين لبني الأخيل العامريين، ويذهبون معهم في الحروب والغزوات، وكان شيخ بني الأخيل حذيفة بن شداد، وكان له ابنة شاع في العرب ذكرها بالحسن والفصاحة وحفظ أنساب العرب وأيامها وأشعارها، وحدث أن غزا بنو خفاجة وبنو الأخيل يوماً. فلما رجعوا من غزوهم حانت من توبة التفاتة، وقد برزت النساء للقاء القادمين من الغزو، فرأى ليلي، فافتتن بها، فجعل يعاودها، فيتحدث معها، إلى أن أخذت قلبه وأطارت لبه، فشكا لها يوماً ما نزل به منها، فأعلمته أن بها منه أضعاف ذلك فأقاما على التزاور وشكاية الهوى.

زواج ليلي

كان توبة يقول الشعر في ليلي، فخطبها إلى أبيها، فأبأها عليه لعادة العرب أن لا يزوجوا بناتهم لمن يتغزل بها ويشهر في الناس اسمها، وتقدم إليها شاب من عشيرة بني الأدلع فزوجها أبوها له، ففلق توبة. وكان يترقب غفلات الحى في الليل فيزورها.

فلما كثر منه ذلك خرج أبوها وزوجها ومعهما نفر من قومهما إلى السلطان، فشكوا إليه ما نالهم من توبة وما شهرهم به، وسألوه الكتاب إلى عامله عليهم بمنعه من الإمام بليلى والكلام إليها أو الحدِيث معها، فكتب لهم

كتابا إلى عامله يأمره فيه أن يحضر توبة ويتقدم إليه فى ترك زيارة ليلى، فإن أصابه أهلها عندها فقد أهدر دمه. فلما ورد الكتاب على عامله بعث إلى توبة وأهله فجمعهم وقرأ عليهم كتاب الخليفة، وقال لتوبة: اتق الله فى دمك لا يذهب هدرا. وخرج مع قومه فأخذوا يلومونه وينهونه عن الاقتراب من ليلى ودارها، فبكى، وسمع حمامة تزخم، فقال:

حمامة بطن الوادين ترمنى	سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعما	ولا زلت فى حضراء غص نصيرها
يقول رجال لا يضرک نأيتها	بلى كل ما شق النفوس يضرها
وانى ليشفينى من الشوق أن أرى	على الشرف النائى المخوف أزورها
أرى اليوم يأتى دون ليلى كأنما	أت حجاج من دونها وشهورها

علامة بين العاشقين

ظل توبة يزور ليلى خفية ، فطلبه قومها ، ولما خافت عليه منهم جعلت بينه وبينها أمارة ، فقالت له : إذا مررت فوجدتنى مبرقة فاجلس إلى مطمتنا فلا حرج حينئذ ، فإذا رأيتنى سافرة فلا تقرب منى واحتط لنفسك وخذ الحذر.

ودخل على ليلى زوجها، وكان غيورا، فحلف إن جاءها توبة ولم تعلمه بمجيئه ليقتلنها، وكانت تعرف الجهة التى يجيئها منها، فرصدوه بموضع، ورصدته بآخر، فجاء، فأسرعت وألقت البرقع عن رأسها، فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه قد رُصد وأنها سمرت لذلك تحذره، فركض فرسه وتولى أسفا وهو ينشد:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقت	فقد راينى منها الغداة سفورها
وقد راينى منها صدود رأيت	وإعراضها عن حاجتى وقصورها

زيارة

ولما اشتد زوج ليلي وأهلها عليها فى مراقبتها ظلت لا تمكنه من زيارتها ولقائها إشفاقا عليه وخوفا على نفسها، وخرجوا فى لجة، فأرسلت إليه من يخبره. فذهب إليها وتحادثا وتشاكيا ما يليقان من الوجد وما زال معها حتى انكشف النهار، فودعها ومضى وهو يقول:

أليس يضرُ العينَ أن تكثر البكا ويُمنع منها نومها وسرورها
لكلِّ لقاءٍ نلتقيه بشاشةٍ وإن كان حولا كل يوم نزورها

عتاب

بلغ ليلي أن توبة يتحدث فى شعره عن زيارته لها وأنها تلقاه فى خباتها، فغضبت غضبا شديدا، وقالت إنه يقول ما يرينى وما التقيت معه إلا على عفاف. وأمسكت عن لقائه فموسل إليها بكل وسيلة أن تلقاه. فأبت ذلك إباء شديدا، وقالت إنه يريد أن يفضحنى بما لم يحدث. فأرسل إليها أنه سيتناول السم أو يلقي بنفسه من رأس جبل، فرقت له، ودعته إلى زيارتها بعد أن جمعت ثلاثة من أهلها، بحيث يخفون عليه. فلما جاءها قالت له: أى خدر دخلت معى حتى تشيع ما تشيع، فاعتذر إليها وتوصل جهده، وقال لها: إن الوشاة الأعداء هم الذين يشيعون ذلك حتى يفرقوا بيننا، وأما أنا فقلت:

علىَّ يمينُ الله إن كان بعلها يرى لى ذبسا غير أنى أزورها
وإنى إذا ما زرتها قلت يا اسلمى وما كان فى قولى اسلمى ما يضيرها

فسرت لقوله، ولسماع أهلها ما يبرى ساحتها.

رقابة الزوج

وكان زوج ليلي لا يزال يراقبها ويرتاب فى أمرها، وكلما رأى حول بيته

شبهها ظنه توبة وأنها على موعد معه. فمن ذلك أن رجلا من عشيرة أخرى غير عشيرتها ابتغى إبلا له ضلت منه، وما زال يبحث عنها، حتى دخل عليه الليل بالقرب من خيباء ليلى. فنزل حيث ينزل الضيف، وأبصرته ليلى ولم تكلمه لأن زوجها كان غائبا. فلما كان بعد هدأة من الليل، وتراءى شيخ الرجل من بعيد، فخاله زوجها توبة. فدخل عليها يناجيها ويقول: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه. فقال لها: كذبت، ما هو إلا توبة أو بعض أصدقائك. ونهض يضربها وهي تناشده. فقال لها: والله لا أترك ضربك حتى يأتى ضيفك هذا فيغيثك. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير، يا رجل. وأقبل الرجل يسرع حتى أتاها وزوجها يضربها، فأخذ بخناقها. فتعرضت ليلى للرجل وقالت له: يا عبد الله: مالك ولنا؟ نحّ عنا نفسك.

وانصرف الرجل، حتى إذا كان الغد ألم بالحى، ورأى غنما فيها راعية، فسألها عن أشياء، حتى بلغ به الذكر، فقال لها أخبريني عن أصحاب الخيباء الفلانى وعين لها الخيباء الذى رأى فيه حادث الأمس. فضحكت وقالت له: إنك تسألنى عن شى أنت به عالم، فقال: وما ذاك، لله بلادك؟ فوالله ما أنا به عالم، قالت: ذاك خيباء ليلى الأخيلية وهى أحسن الناس وجها، وزوجها رجل غيور، فهو يعزب بها عن الناس فلا يقيم بها معهم، وما يقربها أحد ولا يضيفها، فكيف نزلت أنت بها؟ فقال: إنما مررت فنظرت إلى الخيباء ولم أقربه، وكنتم عنها الأمر.

زواج توبة

لما بالغ زوج ليلى فى مراقبتها هجرت توبة، فأضناه الشوق حتى أسقمه، فلامه رفقاؤه، وقالوا له إنك تضيع عمرك وراء ذات بعل، وأولى لك أن تطلب غيرها، وفى العرب جميلات كثيرات، فإرفق بنفسك وتزوج من امرأة لعلها

تنسيك صبابتك بليلى، واحذر لقاءها، فإن زوجها بالمرصاد وقد أهدر السلطان دمك، فلا تغرر بنفسك.

ونزل توبة فى بعض نجمات قومه برجل أكرمه، وكان له ثلاث بنات، وأعجب به فعرض عليه إحداهن ليكون بعلا لها، فاختر كبراهن، ومكث معها عند أبيها مدة، ولكنها لم تنسه ليلي، فقد عاوده الحب وعاودته أسقامه.

ربيبة عارضة

عاد توبة إلى قومه، وجعل يزداد به الوجد، وينشد فى ليلي أشعاره، وهى معرضة عنه، لما عرفت من زواجه. غير أنه لم يكف عن الإلمام بدارها حتى حانت له يوما فرصة، فحذثها وحذثته، وكان أول ما قالت له: إنك قد علقست بأخرى فما لك لا تكف عنا، فحلف لها أنه لم يقربها وأنه لا يزال يحفظ ودها وعهدتها، ثم بدرت منه كلمة ظنت أنه خضع فيها لبعض الأمر، فقالت له:

وذى حاجة قلنا له: لا تبخ بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحباً لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وحليل

ففطن أنها استرابت منه، فحلف أنه لم يرد سوءاً، فاستشاطت غضباً وودعها على استحياء ومضى.

الرحيل إلى الشام

ولما لج بتوبة الحب نصحه بعض أهله أن يرحل إلى الشام غازياً، لعله ينسى حبه، واستمع إلى نصحهم، فخرج إلى الشام ومر بنى عذرة، فرأته بشينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، فقال له جميل: من أنت؟ قال أنا توبة الخفاجى، فقال له: هل لك فى الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بشينة

توبة وليلى الأخيلىة

١١١

ثوبا مصبوغا، فلبسه، ثم صارع توبة فصرعه. ثم قال له: هل لك فى النضال ورمى السهام؟ قال: نعم فناضله، فضله. ثم قال له: هل لك فى السباق؟ فقال نعم، فسابقه، فسبقه. فقال له توبة: يا هذا إنما غلبتني بما شئت من عزيمتك هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فصرعه توبه ونضله وسبقه.

العودة سريعا

لما دخل توبة الشام أقام بها يسيرا، ولم يستقر به المقام، فقد كانت تعاوده ذكرى لىلى الأخيلىة، وكان يخرج إلى التلال والروابي، ليعزى نفسه، وجزع جزعا شديدا وأصبح دأبه البكاء، فلم يلد له حال، ولا نعم له بال. فعاد إلى قومه، وحين دخل حتى لىلى لقى صغيرا يلعب، فقال له: هل أنت عارف بلىلى؟ قال: نعم، قال: امض وأنشد:

وكنت إذا ما زرت لىلى تبرقتُ فقد رابنى منها الغداة سفورُها

وعد إلىّ وقل لى ما تحببك به. فمضى الغلام، فأنشد لىلى البيت، فعلمت أن توبة قد ورد الحى، فقالت للغلام: قل له إنها الآن مبرقة، فمضى الغلام إليه وأعلمه ذلك، فأقبل إليها فجدد زيارتها على خيفة من زوجها.

موت توبة

كان بين بنى خفاجة قوم توبة وبعض قبائل العرب حروب وثورات، وكانت المعارك لا تزال ناشبة بينهما، فاشترك توبة يوما فى بعض هذه المعارك، وأبلى بلاء حسنا، ولكن سهما أصابه من بعض الأعداء، فخر مغشيا عليه وحضرته الوفاة، فقال له ابن عم له: هل لك حاجة أبلغها إلى أهلك، فقال: نعم تبلغ لىلى الأخيلىة هذه الأبيات:

ولو أن ليلى الأخيَّة سلَّمتُ
 لسَلَّمتُ تسليماً البشاشة أو زقا
 ولو أن ليلى في السماء لأصعدتُ
 أغبط من ليلى بما لا أناله
 وهل تبكين ليلى إذا متُّ قبلها
 وقام على قبري النساء النوائحُ
 كما لو أصاب الموتُ ليلى بكيها
 وجاد لها جارٍ من الدمع سافحُ
 عليّ ودوني تُرْبَةٌ وصفائحُ
 إليها صدَى من جانب القبر صائحُ
 بطرفي إلى ليلى العيون الكواشحُ
 ألا كل ما قرَّت به العين صالحُ

فقال: إني مبلغها، فقال توبة: وهل لك في أخرى؟ جزاك الله خيرا قال: ما هي؟
 قال: إذا بلغت الحَيَّ فاصعد إلى شرف (مكان عال) ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتنَّ ليلةً من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فأقبل الرجل على ليلى فأبلغها أبيات توبة، فبكت بكاء شديدا. ثم صعد
 شرفا، وأنشد البيت، فأجابت ليلى:

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينألها

ليلى تندبه حتى الموت

وأسرعت ليلى فخلعت زينتها، وأقامت على الحزن طوال حياتها من بعد
 توبة، لا يهنأ لها طعام ولا شراب، وأكثرت من ندبه والنواح عليه من مثل قولها:

لتبك عليه من خفاجة نسوةً بدمعٍ كفيض الجدول المتفجرِ

وقولها:

فلا يبعدنك الله يا توبَ هالكا
 وآليتُ لا أنفكُ أبكيك ما دعتُ
 أنا الحرب إن دارت عليك الدوائرُ
 علي فَنِّ ورقاءٍ أو طار طائر

ولها فيه قصائد وأشعار كثيرة، تندبه بها ندبا حارا، وكانت لا تقبل من سفر إلا تمر بقبره وتبكيه بكاء مرا، وأقبلت على القبر يوما ومعها زوجها، وهى فى هودج لها، فقالت: والله لا أبرح حتى أسلم على توبة. وتركها زوجها فصعدت أكمة عليها القبر، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم التفتت إلى من معها من القوم وقالت: ما باله لا يسلم على، تشير إلى قوله

ولو أن لىلى الأخيلىة سلّمت على ودونى تُربةً وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زقا إليها صدّى من جانب القبر صائحُ

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج فرعت وطارت فى وجه الجمل، فنفر، فرمى بلىلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنوها بجواره.

الصِّمَّةُ وَرِيًّا

تعارف مبكر

كان الصِّمَّةُ القُشَيْرِيُّ فتي من فتيان بنى عامر ومن شجعانهم وشعرائهم، وقد تعلق حين شب بابنة عمه ريا وكانت ذات حسن وظرف تعرف أيام العرب وأشعارها، وقد نشأ معا، فكانا يتذاكران الأخبار ومُلح الشعر وما جرى منه على ألسنة العشاق.

وأعجب بها الصِّمَّةُ إعجابا ملك عليه قلبه وذهب بلبه، ولم يكن عندها من الحب مثل ما عنده منه، فلما شكها ما يجيد منها إلى بعض رفقاته نصحوه أن يطلبها من عمه فإنه لن يرده خائبا.

الصِّمَّةُ يخطب ريا

وذهب الصِّمَّةُ إلى عمه فخطب منه ابنته ريا، فقال له لا أزوجها إلا على مائة من الإبل، فذهب إلى أبيه فأعلمه ذلك وشكا إليه ما يجيد بها، فأعطاه تسعة وتسعين بعيرا، وقال له: هي كل ما أملك، ولعل عمك يقبلها. فلما جاء بها عمه عدها، فوجدها تنقص بعيرا، فقال: لا آخذها إلا كاملة. فلما رأى ذلك من فعله أرسلها فعاد كل بعير منها إلى الألف، وأخذ يبكي نفسه وحظه.

زواج ريا

وخطب ريا من أبيها أحد فتيان بنى عامر، وكان موسرا، فأوفى له بما أراد من الإبل، وزفها إليه، فوجد بها الصِّمَّةُ وجدا شديدا وأظلمت الدنيا في عينيه، وحاول أن يلم بها أو يلقاها، فصدته عنها فبكى وأنشد:

لعمري إن كنتم على النَّأى والقلى بكم مثل ما بي إنكم لصديق
إذا زفرات الحبَّ صَعَدن في الحشا رُدِدن ولم تُنْهَجْ هن طريق

الرحلة إلى الغزو

ولما تنازع الصمة الشوق مرض حتى أضناه السقم، فأخذه أبوه إلى كاهن،
لعله يشفيه مما به، وكان الكاهن يسمى غاوى بن رشيد، فلما سأله عن مرضه،
وأخ في السؤال، قال:

حننتُ إلى رِيَا ونفْسُك باعدتُ مزارك من ريا وشعباكما معا
وما حَسَنُ أن تأتي الأمرَ طائعا وتجزعَ أن داعى الصباية أسما
كأنك لم تشهدْ وداعَ مُفارق ولم تر شيعى صاحبين تقطعا
بكت عينيَ اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
وليست عَشِيَّاتِ الحِمَى برواجع إليك ولكنْ خلَّ عينيك تدمعا

فقال الكاهن لأبيه أنه يشكو العشق لا غيره ، وليس له دواء عندي ، إنما دواؤه
الرحلة حتى ينسى . فعاد به أبوه إلى الحى وأخذ رفقاؤه يحنونه على الغزو
والجهاد مع المخاربين في بلاد إيران ، فأقام مقاما يسيرا، ثم رحل مع جماعة كانوا
راحلين نحو العراق، وألم بيت ريا ، فخرجت إليه تودعه، فذكرا ما كان بينهما
وأنشد:

أما وجمال الله لو تذكيرني كذكريك ما كفكفتُ للعين مدمعا
فقال: بلى والله ذكرا لو انه يُصَبُّ على صُمِّ الصفا لتصدعا

وتركها وهو ينشج أحرَّ نشيج، ولما بعد عن الحى أظهر تولها شديدا، فصبره
رفاقه، وأخذوا يعزونه عنها، وهو يلتفت إلى ديارها ويقول:

ولما رأيت "البشر" قد حال بيننا وجات بنات الشوق فى الصدر نزعاً
 تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء لبتاً وأخذنا
 وجدت الرفقة فى سيرها، وهو مسلوب العقل ذاهل القلب، لا يتحدث إلا
 عن صاحبتة وذكرياته وما كان من قساوة عمه، وما يزال ينشد:

وأذكر أيام الحيمى ثم أنثى على كبدى من خشية أن تصدعاً

وما زالوا جادين فى المسير حتى وصلوا إلى نهر الفرات، فقالوا له: لقد
 خرجنا من جزيرتنا، فدع صاحبتك وانظر إلى نفسك فإنها لو كانت صادقة الود
 ما تزوجت ولا اختارت عليك، فالتفت إلى ورائه وإلى الرياح الوافدة من ديار
 ربا، وقال:

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضكم أتنا برياًكم فطاب هبوبها
 أتنا بريح المسك خالطاً عنبراً وريح الخزامى باكرتها جنوبها

فظلوا يواسونه، ويقولون له إنك خرجت إلى الجهاد فى سبيل الله كى تنساها،
 وحرام عليك أن تعود إلى ذكرها لما أنت قادم عليه من لقاء الأعداء ومنازلة
 الفرسان.

الوفاة فى طبرستان

ولما التقى الجمعان أبلى فى الحرب بلاء عظيماً ودل على فروسية وشجاعة
 باهرة، كانت مضرب الأمثال من الأبطال والشجعان. وكان ما يزال رفقاؤه
 يلحظون عليه تولعه بربا، فكانوا يسلون، وهو عنهم ذاهل القلب، غافل عما
 يقولون.

وبينما هو ينازل قرناً من الأعداء تذكر ربا، فكف عن نزاله، وحاول أن
 يعود ليرجع إليها، ولكن القرن عاجله بطعنة نافذة، فخر على الأرض، فأسرع

إليه رفيق فحملة، فإذا هو يتحرك ولا يتكلم، وأصغى إليه رفيقه، فوجده يتمتم بصوت خفى:

تَعزُّ بصبر لا وجدك لا ترى نساء الحِمَى أحرى الليالى الغوابرُ
كأنَّ فؤادى من تذكُّره الحِمَى وأهل الحِمَى يهفو به ريشُ طائر

وما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.

وحمل نعى الصمة إلى أهله، فخرجت ريا ونساء الحى يندبنه ويبكين فيه الشجاعة والعفة، وبكاه الرجال ورثوه طويلا. ولم تطل الأيام برياً، فقد ماتت حزناً عليه وغماً .

مالك وظريفة

من أول نظرة

كان في بني عدرة شاب حسن الوجه عذب المنطق سخي الكف يسمى مالكا، خرج يوما للصيد ، ومر في طريقه على عين ماء ، لبعض العشائر من قبيلته ، فوجد طائفة من النساء ، اجتمعن عليها، يغترفن بعض الماء ، ومن دونهن فتاة قد انفردت تمشط شعرها ، وقد انسدل على وجهها ، كأنه البدر يلمع في الظلام، فحين أبصرها وقعت في قلبه ، ولم يكذب يحدّثها وتحدّثه حتى سقط مغشيا عليه، فقامت إليه، فرشت الماء على وجهه ، فلما أفاق وأبصرها تسكب عليه الماء كي يفيق ، قال : وهل مقتول يداويه قاتله ، وأنشد يحكى حاله ومآله:

خرجتُ أصيدُ الوحشَ صادفتُ قانصاً من الرّيم صادتنى سريعاَ حباتلُه
فلما رماني بالنبال مُسارعاَ رقاني ، وهل ميّت يداويه قاتلُه

فقالت له: كُفيت ما تشكو، وحادثته حتى ثابت إليه نفسه، وقد رقت له، ثم قامت فانطلقت مع النسوة وهي تنظر إليه، فأنشد باكيا:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحبّ ويعشقُ

مرض طويل

وعاد الفتى إلى حيه، ولم يعد يخرج للصيد كعادته، ومرض ولزم الفراش، فأقسمت عليه أمه أن يخبرها بحقيقة علته، فكان يخجل وينعقد لسانه، ولما أخت عليه أنشد متأثرا:

يا علة طالت على دنفٍ يشكو الفراقَ وقلة الصبرِ
 ما كنت أعلم أنى كلفٌ حتى تلفتُ وكنيت لا أدري
 والبدر يشهد أنى هائمٌ مغرَى بجنبٍ شبيهة البدرِ

وقصَّ عليها قصة رؤيته للفتاة، فسألت عنها حتى عرفت أنها ظريفة بنت صفوان ، فمضت إليها وأخبرتها بما آل إليه حاله، وعرضت عليها أن تزوره، فقالت لها: إنى لا أستطيع والناس حولي، كلهم واش حسود ، فقالت لها: إنما رجوت بزيارتك أن يبلّ من مرضه، فأبت أن تجيبها إلى ما أرادت ، وقصت خصلة من شعرها ، وقالت لها: أعطه هذه الخصلة ، لعله إذا أمسك بها زال عنه ما يجده وفارقه سقمه. فرجعت أمه إليه، وناولته خصلة الشعر فأخذ يقبلها ورجعت إليه نفسه قليلا قليلا.

محاولات

وكان مالك كلما اشتد عليه الوجد جعل على وجهه خصلة الشعر التى بعثت ظريفة بها إليه مع أمه ، فيستريح بعض الشئ . ولما كان فى بعض أيامه وقد خرج ليستنشق الهواء سقطت منه الخصلة ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، وعأوده السقم والضنا وأخذ يبكى ويردد:

أكفكفُ جفنَ العين والدمعُ سافحٌ كشبه غديرٍ فوق خدّى جاريا
 فىا لیتَ شعرى ذا البكاءِ إلى متى وحتى متى ذا الحزن والجسم باليا

وأخذ يلم بدارها لعله يراها فى إحدى غدواتها أو روحاتها، ورآها يوما تسير مع بعض النساء من أهلها، فخالسته وخالسها النظر، ولم يستطيعا الكلام، ورأى دمعة تترقق فى عينيها، فأنشد:

جلست لها كيما تمرُّ لعننى أخالسهـا التسليم إن لم تسلّم
فلما رأتنى والوشاة تحدّرت مدامعها خوفاً ولم تتكلم

وتعرض لها مرارا بعد ذلك، فلم يرها، فعمد إلى غلام من الحى، فمناه الجزاء
إن هو أنفذ له ما يريد منه، وسأله الغلام ماذا تريد؟ فقال له: أريد منك أن
تحاذى دار صفوان وتنشد هذه الأبيات:

مريضٌ بأفناء البيوت مطرّح أبى ما به من لاعج الشوق يبرح
وليس دواء الداء إلا بخيلة أضربُ بنا فيها غرامٌ مبرح
إذا ما سألناها وصالا تُنيله فصمُّ الصفا منها بذلك أسمح

وجعل يكررها عليه حتى حفظها. وحاذى دار صفوان، ورفع صوته بالأبيات،
فعرفت ظريفة قائلها، وأنشدت تجيبه:

رعى الله من هام الفؤادُ بحبه ومن كدتُ من شوق إليه أطيّرُ
لئن كثرتُ بالقلب أترأخُ لوعةٍ فإن الوشاة الحاضرين كثير
وإن لم أزر بالجسم رهبة معشرٍ فبالقلب آتى نحوكم فأزور

ورجع الصبى إلى مالك فأنشده أبياتها، فسقط مغشيا عليه ساعة، ثم أفاق
وهو يردد إهمال عشيرته وأبناء عمومته له قائلا:

أظن هوى الخوّد الغريرة قاتلى فيا ليت شعرى ما بنو العمّ صنّع
أراكم - وللرحمن درّ صنيعكم - تركتم دمي هئلاً وخاب المضيع

زواج ظريفة

أضنى الحب مالكا وبراها، فتوسل إلى بعض أقاربه أن يخطبوا له ظريفة من
أبيها، وذهبوا إليه يخطبونها منه، فقال: إني لا أزوجها له بعد أن فضحها بشعره،

وردتهم أقبح رد، ثم زوجها - على كره منها - لفتى من فتيان العشيرة تقدم إليها. ولما عرف مالك خبر زواجها أخذ يبكي بكاء مراء، فكان بنو عمه وأقرباؤه يواسونه ويعزوننه، فكان يقول:

دعوني لما بي وانهضوا في رعاية من الله قد أيقنتُ أن لست باقيا
وإذ قد دنا موتي وحالت منيتي وقد جلبتُ عيني إلى الدواهيا
أموت بشوقٍ في فؤاد مبرِّح فيا ويح نفسي منْ به مثل ما بيا

واشتدت به العلة، حتى غدا كالحيال، وفي يوم تتابع عليه الإغماء، وكان كلما أفاق من إغمائه ردد:

ليكني اليوم أهلُ الود والشَّقِّقِ لم يبق من مهجتي إلا شفا رَمَقِ
اليوم آخرُ عهدي بالحياة فقد خلصتُ من رِبْقَةِ الأحزان والقلقِ

ولم يزل على ذلك حتى شهق شهقة فارق على إثرها الحياة. وعلمت وظيفة بموته في حبتها، فخرجت حتى انتهت إلى قبره فألقت نفسها عليه، وهي تبكي وتنشد:

اليوم أبكى لصبِّ شفاً مهجته طولُ السقام وأضنى جسمه الكمدُ
أعطرُ قبرك أسرى لي النسيمُ به أم أنت حيثُ يناط السَّحْرُ والكبدُ

ثم انشنت على صدرها وكبدها، فحركها من معها، فوجدوها ماتت، فدفنوها بجواره.

ابن أبي عمّار الناسك وسلامة

سلامة

كانت سلامة مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت، وكانت من أحسن النساء وجها وأتمهن عقلا وأعذبهن حديثا، قرأت القرآن وروت الأشعار، ثم تعلقت بالغناء، فتعلمت فيه على معبد مغنى المدينة المشهور، فمهرت، وجلست للغناء مع أختها ربا في مجلس لهما بالمدينة، فكان الشعراء والناس يقصدون دارهما للسمع، ولم يبق بالمدينة شاعر إلا وشغفت قلبه حبا، وكان ممن أسرت لُبّه الأحرص، وفيها يقول في بعض أشعاره:

إذا أنت لم تعشق ولم تلر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جَلَمدا
وإني لأهواها وأهوى لقاءها كما يشتهي الصادى الشراب المبردا

وكانت تصفى الود كل من يتعلق بها، كما كانت تكثر من الرحيل إلى مكة، موقدة في نفوس الناس هنا وهناك جذوة الإعجاب.

الناسك المكي

وكان بمكة ناسك مشهور بالتقوى والعبادة والزهد في حطام الحياة، وكان من قراء الذكر الحكيم ورواة الحديث النبوي، ليس له شغل سوى النسك حتى لقبه أهل بلده بالقس، وهو عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي. وتصادف أن سمع غناء سلامة ذات يوم، فأظهر استحسانه وافتتانه به، وراه مولاهما أمام داره، وهو يرهف سمعه، فدعاه أن يدخله إليها فيسمع منها، غير أنه أبى عليه مظهرا تحرجه، فقال له: فإني أقعدك في مكان تسمع منها ولا تراها ولا تراك،

فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها . فلما طال سماعه لها قال له : هل لك في أن أخرجها إليك ؟ فأبى . فلم يزل به حتى أخرجها ، وأقعد لها أمامه ، وهي تضرب على العود وتغنى ، وسرعان ما فتن بها وفتت به، وشاع ذلك في الناس حتى غلب عليها لقبه ، إذ سموها سلامة القس.

غرام متصل

احتلَّ حب سلامة قلب القس، وأخذ يستأثر بكل مشاعره وعواطفه، حتى لقد حوله إلى شاعر غزل، ينظم الشعر، ويلقى به صاحبته ضارعا متوسلا، بل لقد تحول به إلى ما يشبه شباكا يحوكها من حولها، وكلما تخلصت من خيوط تعثرت في أخرى، فإذا هي تقع في حبه كما وقع في حبه، وإذا هي تردد عليه كل ما ينظمه فيها، بل إنها لتغنى به غناء عذبا ساحرا، فتضفي على جمال شعره جمال صوتها، وكأنما يتعانق العاشقان في الألفاظ والكلمات حين ينشد القس وتتغنى سلامة بمثل قوله:

سَلَامٌ هل لي منكم ناصرُ أم هل لقلبي عنكم زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وقوله:

أهابك أن أقول بدلتُ نفسي ولو أنى أطيع القلبَ قالاً
حياءً منك حتى سُلَّ جسمي وشقُّ على كتمانى وطالاً

وطبيعي أن يلدوى القس ويأخذه النحول والضمور، لأنه لا يجب حبا عاديا، فيه متاع وفرح وابتهاج، وإنما يجب حبا طاهرا نقياً كله حرمان، وكله ألم وضنى وشقاء، وكله وجد ليس بعده وجد، وكله عناء لا يشبهه عناء.

بين النسك والهيام

أخذت سلامة تمعن في حب القس، وكلما ظنّت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى منه، تراءى لها في الخيال، وكأنه يحاول أن يعدها عنه، ولكن ترى متى يتحول حب القس من هذه النار العاصفة بنفسه إلى شراب مصفى؟ وكانت تلقاه دائما ويتجاذبان أطراف الحديث، ومن حين إلى حين يقدم لها أشعاره من مثل قوله:

سَلَامٌ وَيحكِ هل تحبين مَنْ ماتا أو ترُجعين على الحزون ما فاتنا

وقوله:

ألا قُلْ لهذا القلب هل أنت مُبصِرٌ وهل أنت عن سَلَامَةَ اليوم مُقصرٌ

ولا يعدو ما بينهما من كلام النقاء العذرى البرىء، وإنه لينصرف دائما عن هذا الجمال المغرى والحسن الفاتن إلى النسك والعبادة، متخلصا من كل علاقة حسية وكل شائبة مادية.

وداع إلى الأبد

ملك حب القس على سلامة قلبها ومشاعرها، وكثيرا ما كانت تحدث نفسها أن تنعم بحبها وأن يضمها القس إلى صدره، ولكنها كانت كلما لقيته أكبرته وأجلته، وشعرت كأن حجابا صفيقة تقوم بينه وبينها، وإنها هائمة به وهيام لا يعرف اليأس، وتخلو به ذات مساء، فتبادره بقولها: أنا والله أحبك، ويجيبها: وأنا والله أحبك، وتقول: وأنا أشتهى أن أعانقك وأقبلك، ويجيبها: وأنا أشتهى مثل ذلك، وتقول: فما يمنعك وإن الموضع خال، ويجيبها: يمنعني أن أنعم بحبك في الدنيا وأشقى به في الآخرة فغدو يوم القيامة من الأخلاء الأعداء

الذين ذكرهم الله عز وجل في قوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. ويودعها وداع الأبد منشدا:

بَاءتْ تُعَلِّنَا وَتَحْسِبُ أَنَا فِي ذَاكَ أَيْقَاطٌ وَنَحْنُ نِيَامُ
حَتَّى إِذَا سَطَعَ الصَّبَاحُ لِنَاطِرٍ فَإِذَا بَدَلَك بَيْنَنَا أَحْلَامُ

ويعود القس من أحلامه الكبيرة إلى ما كان عليه من الزهد والتقشف والعبادة والانصراف عن كل متاع في الحياة. وتشد سلامة رحلها إلى المدينة حاملة لعاشقها العابد بين الأسى والندم مودة صافية وإخلاصا لا حد له.

ذو الرمة ومية

أول الهوى

كان ذو الرمة من بنى عدى بن عبد مناة شاعرا من أطرف الناس حلو المنطق حسن الحديث، إذا كلمك لم تسأم كلامه. وكانت مية بنت سيد شريف من تميم يسمى طلحة بن قيس بن عاصم، وكانت هجرية اللون أقرب إلى القصر بدينة، إلا أن في كلامها عذوبة.

وسبب تعلق ذي الرمة بها وأول ما كان من عشقه لها أن حَيَّه كان يقيم بالقرب من عشيرتها في بعض نجعاته بشرقى الجزيرة العربية، وضلت لهم إبل فخرج هو وأخوه وابن عمه في ابتغائها وطلبها، وبينما هم يسرون رأوا خيمة كبيرة قد علا عمودها وأطناها ومدت أوتادها وأسبابها، وكان قد أجهدهم العطش، فقال له أخوه وابن عمه: ائت الخيمة فاستسق لنا، فأخذ معه قرية صغيرة، وأتى الخيمة، فإذا عجوز جالسة فاستسقاها، فالتفت وراءها وقالت: يا مى، فجاءتها فتاة تتمشط حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عناقيد النخل ووجهها يشف من خلاله، فقالت لها: اسق الغلام، فجاءت بماء خلط بلبن فسقته، ثم أخذت تملأ له قربته، وتقول له عابثة: لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك وحدائث سنك. ولها ذو الرمة بالنظر إليها، وأقبلت تصب الماء في قربته والماء يذهب يمينا وشمالا، فأقبلت عليه العجوز وقالت له: يا غلام أهلك مى عما بعثك أهلك له، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا؟ فحجل ومضى لصاحبيه وقد علق بقلبه من حبها لاعج عجز عن إطفائه، وغرام كل عن إخفائه. وأتى أخاه وابن عمه، فحدثهما بها، وكيف تحرك لها قلبه، وهما يضحكان منه ويعجبان من أمره.

معاودة الزيارة

هام ذو الرمة بمية، وأصبح مستهام القلب بها يذكرها في غدوه ورواحه، ولما طال به هيامه عاد إلى زيارتها فكانت تلقاه وترحب به، ويتحدثان أحاديث طويلة. وكانت دياره بعيدة عن ديارها، فكان يلومه بعض رفاقه على ما توجب له زيارتها من نصب ومشقة، فكان يقول:

و كنت إذا ما جئت مياً أزورها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفريات البيض ودّ جليسها إذا ما انقضت أحلوثة لو تعيدها

وظل يعاود زيارتها، وهي تستقبله، وتكرمه، وتحذثه، وقد عرفت أنها أسرت لُبّه، ولم تكن تتبد به مكاناً قصياً، بل كانت تجلس إليه ومعها صواحبها يستمعن إلى حديثه وأشعاره.

يزورها مع صديق

وكان لدى الرمة صديق يسمى عقبة بن مالك، فجاءه يوماً وقال له: لقد عرفت أن الرجال في عشيرة مية قد انتجعوا فهل تسعدني في زيارة إليها، ترافقني فيها، فأجابه إلى بغيته. وركبا حتى أتيا حيهما، وإذا بيتهما خال قد خرج عنه أبوها وأهلها، فمالا إليها، ورآهما النساء، فتجمعن نحوهما ونحو بيت مية، وخرجت إليهما كأنها البدر السافر، وهتف النسوة: أنشدنا يا ذا الرمة من شعرك وغزلك، فقال: أنشدنّ يا عقبة، فنظر إليهن وأنشدن من شعر ذي الرمة:

وقفتُ على ريعٍ ليةٍ ناقتي فما زلت أبكى عنده وأخاطبة
وأسقيه حتى كاد مما أبته تكلمني أحجاره وملاعبه

فلما بلغ قوله:

فأسبلتِ العينان والقلبُ كاتمٍ . بمغرورقٍ نمتُ عليه سواكِبُهُ
هو الإلفُ قد حانَ الفراقُ ولم تجلِّ مجاولها أسرارهُ ومعاتبهُ

قالت ظريفة من النساء: لكن اليوم فلتجل. ومضى رفيقه، فلما انتهى إلى قوله:

وقد حلفتُ بالله مئةً ما الذى أحدثتها إلا الذى أنا كاذبُهُ
إذن فرمانى الله من حيث لا أرى ولا زال فى دارى عدوُّ أحرابه

فقالت الظريفة لمى: قتلته، قتلك الله، فقالت مى: خف عواقب الله يا ذا الرمة.
واستزل الرفيق فى القصيدة إلى قول ذى الرمة:

إذا سرحتُ من حبِّ مى سوارحُ على القلب أمته جميعا عوازبه

فأعادت الظريفة على مى قولها: قتلته، قتلته. فقالت مى: ما أصححه وهنيئا له،
فتنفس ذو الرمة نفساً حاراً. ومضى رفيقه فى القصيدة إلى قوله:

إذا نازعتك القول مئةً أو بدا لك الوجه منها أو نصّاً الدرغ سائبة
فيا لك من خدِّ أسيلٍ ومنطقٍ رخيمٍ ومزوجٍ تعلل شاربه

فقالت الظريفة ضاحكة: هذا القول قد تنازعه الشعراء والوجه قد بدا وقد
واجهتها، فالتفت إليها مية وقالت لها: ماذا تريدين؟ قاتلك الله. فقالت الظريفة
ضاحكة: إن لكما لشأنا، وغمزت صواحبها قائلة: قمن بنا، فقممن وقام معهن
رفيقه. ووقف بحيث يراهما، فجعل ذو الرمة يشكوها وجدده، وهى تقول له:
كذبت، لست صادقاً فيما تقول، وخرفت عيناه بالدموع، وأنشد:

ولما شكوت الحب كيما تُشيني بوجدى قالت إنما أنت تمزحُ
بعاداً وإذلاً على وقد رأيت ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرحُ
لئن كانت الدنيا على كما أرى تباريح من ذكراك فالموتُ أروحُ

ثم انفجر في البكاء، فتساقطت قطراته على خديه كأنها حبال توشك أن تنقعه
واستمر في نشيده:

إذا خطرتُ من ذكر ميةً خطرةً على القلب كادت في فزادى تجرحُ
هي البرء والأسقام والهمُّ والمنى وموت الهوى في القلب منى المبرح
تصرفُ أهواء القلوب ولا أرى نصيبك من قلبي لغيرك يمنح
وبعض الهوى بالهجر يمحي فينمحي وحبك عندي يستجدُّ ويربح

فقال: كفى كفى، ورقت له، ودخلت خبائها، وجاءته بقارورة طيب وقلادة،
فأهدتهما إليه ذكرى زيارته وشعره. وودعها ومضى إلى رفيقه، فركبا بعيرهما،
وعادا إلى حيهما وهو ينشد:

لعمرك إني يوم جرعاء مالك لدو عبرةٍ كلا تفيض وتخنقُ
وانسانُ عيني يحسر الماء تارةً فييدو وتاراتٍ يجمُّ فيغرقُ

زواج مية

كان أبو ميةً من أشرف العرب، فكان ذو الرمة يأتسا من خطبتها، وتقدم
إليها فتى موسر من عشيرتها فزفت إليه، ونقلت إلى حيه. ومر ذو الرمة مع
صاحبين له بمنازلها التي كان يلقاها فيها وقد خرجت عنها، فقال يودع الآثار:

ألا فاسلمي يا دار مئى على البلى ولا زال منهالاً بجرعائك القطرُ

ثم نزل عن ناقته وأقبل على بعض المواضع يبكى فيها ويقبلها وقد وجد وجدًا
شديدًا، فنزل إليه صاحباها يواسيانه ويقولان له: لقد تزوجت وأحرى بك أن
تنساها، وكيف تفكر فيها ودونها من يحرسها ولن تستطيع الوصول إليها، فأنشد
يحكى قولهما:

أَمَا أَنْتِ عَنْ ذِكْرِكَ مِئَةَ مُقْصِرٍ وَلَا أَنْتِ نَاسِيَ الْعَهْدِ مِنْهَا فَتَذَكُرُ
تَهِيمٌ بِهَا مَا تَسْتَفِيقُ وَدُونَهَا حِجَابٌ وَأَبْوَابٌ وَسِيزٌ مُسْتَرٌ

وبكى بكاء شديدا، فأخذها يعزيانه ويقولان له: أمسك نفسك، فقال: إنسى جلد وإن كان منى ما تريان، وانصرفوا.

الإمام بدار مية

وَألم ذُو الرِّمَّةِ بَدَارَ مِئَةٍ فِي لَيْلَةِ ظُلْمَاءٍ، فَأَضَافَهُ زَوْجَهَا، وَطَمَعَ ذُو الرِّمَّةِ فِي
أَنْ لَا يَعْرِفَهُ، فَيَدْخُلُهُ بَيْتَهُ، فَيَرَاهَا وَيَكَلِّمَهَا. وَلَكِنْ الزَّوْجُ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ عَرَفَهُ، فَلَمْ
يَدْخُلْهُ الْبَيْتَ وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ طَعَامَهُ وَتَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ، فَلَمَّا كَانَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ تَغْنَى:

خَلِيلِيَّ عُدًّا حَاجَتِي مِنْ هَوَاكُمَا وَمَنْ ذَا يُوَاسِي النَّفْسَ إِلَّا خَلِيلُهَا
أَلِمَّا بَعِيَّ قَبْلَ أَنْ تَطْرَحَ النَّوَى بِنَا مَطْرَحًا أَوْ قَبْلَ بَيْنِ يَزِيلُهَا
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعَلُّلُ سَاعَةٍ قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

فقطنت إليه مية، وأرسلت إليه جارية لها تسأله أن لا يتغنى حتى لا يتعرض له زوجها بسوء، ولكنه لم يستمع إلى قول الجارية، وتغنى بصوت عال:

أَرَا جَعْتِ يَا مِيَّ أَيَّامَنَا الْآلِيَّ بَدَى الْأَثْلُ أَمْ لَا مَا لَهْنُ رَجُوعِ

فغضب زوجها، وقال لها: قومي فصيحى بهذا الرجل وسببه، وقولي له: أى الأيام كانت لي معك بدى الأثل، فقالت له: سبحان الله إنه ضيف، وما كل ما يقوله الشعراء صحيح، فانتضى زوجها السيف وقال: والله لأضربك به حتى آتى عليك أو تقولي له ما قلت لك، فصاحت به كما أمرها زوجها، فنهض على راحلته، فركبها وانصرف عنها مغضبا، وهو يقول:

أَيَا مِيَّ قَدْ أَشْمَتُ بِي وَيَحْكُ الْعِدَا وَقَطَّعْتَ حَبْلًا كَانَ يَا مِيَّ بَاقِيَا

موت ذى الرمة

وظل ذو الرمة وفيالمية يتغنى باسمها وبالمنازل التي كان يراها فيها، ويبكى بكاء حارا يذرف فيه الدمع مدرارا. ومرض حتى أسقمه المرض وأضناه، وسرعان ما حضرته الوفاة، فقال لأهله: لا تدفنوني في الوهاد ولكن ادفنوني في كئبان مرتفعة واغرسوا حول قبري بعض الأشجار. فلما مات صلوا عليه، ثم حملوه وحملوا معه بعض الأشجار، وحفروا له قبرا في كئيب عال دفنوه فيه، ودثروه بذلك الشجر. وبكاه الحى وندبته النساء طويلا.

العبّاس بن الأحنف وفوز

أول الهوى

كان العباس بن الأحنف شاعرا بغداديا غزلا حلوا مقبولا غزير الفكر عذب الحديث، محبوبا من هرون الرشيد ووزرائه وقواده، وكان محمد بن المنصور بن زياد الملقب بفتى العسكر يآلفه ويعجب به، فكان يدعوهُ إلى منزله، وكان جوادا يختلف إلى مجلسه الأدباء والشعراء، وكان له جوار كثيرون، وكانت من بينهم جارية ظريفة تسمى فوزا تروى الشعر وأخبار العرب، فكان محمد يحضرها مجالسه؛ ف وقعت في قلب العباس بن الأحنف، وعرفت موضعها من قلبه، إذ كان يطيل النظر إليها، وكان إذا سأله محمد بن المنصور عما أحدث من الغزل ينشد أشعاره وهو ناظر إليها، وكان يَكْنِيها باسم ظلوم، لما كانت تصد عنه وتنفر منه وسأله يوما محمد ماذا أحدثت؟ فقال:

قالت ظلومُ سَمِيَّةُ الظلم ما لي رأيتك ناحل الجسم
يا مَنْ رمى قلبي فأقصده أنت العليم بموضع السهم

فأطراه محمد، وأظهر إعجابه واستحسانه، وقال له: زدنا يا عباس من غزلك الرقيق، ونظر إلى فوز فقرأها تتكلف الإعراض والازورار عنه، فأنشد:

ألا تعجبون كما أعجبُ حبيبٌ يُسيئُ ولا أعتبُ
وأبغى رضاه على سخطه فيأبى علىّ ويستصعب
فياليت حظي إذا ما أسأ تَ أنك ترضى ولا تغضب

فقال محمد بن المنصور: والله إن معشوقتك لمقصرة، ولو كنت في موضعك لقابلت إعراضها بإعراض، فقال على البديهة:

تَحْمَلُ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِنْ تَحِبُّهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ
فَإِنَّكَ إِلَّا تَغْفِرَ الذَّنْبَ فِي الْهَوَى يَفَارِقُكَ مِنْ تَهْوَى وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ

فطرب محمد وقال للعباس: صدقت، وانتهى المجلس، فقام، وانصرف.

متابعة الشكوى

وفي مجلس ثانٍ محمد بن المنصور أقبل العباس فسلم، وبدت فوز، فخفق قلبه، وجلست دون أن تحييه، وأخذ العباس في الحديث، فسأله محمد، ما شأن صاحبك وهل وصلتك؟ فأجاب:

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَا رَقَّ لِلْوَلَدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ

وقال محمد: ترى من هي التي فتنتك وما مقدار حسنها؟ صفها لنا وأوجز، فقال على الفور:

لَقَدْ مَلَّتْ مَاءَ الشَّبَابِ كَأَنَّهَا قَضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ رِيَّانٌ أَخْضَرُ

ونجست فوز، ولم يلتفت محمد ولا فطن. وقال: مسكين أنت يا عباس، ولو عرفتها لكلمتها في أمرك، ومن يعرف ربما كانت تصد عنك عتابا لا مللا ولا كرها، فأنشد:

لَوْ كُنْتَ عَاتِبَةً لَسَكَّنَ رَوْعَتِي أَمَلِي رِضَاكَ وَزَرْتُ غَيْرَ مَرَاقِبِ
لَكِنْ مَلَّتْ فَلَمْ تُكُنْ لِي حِيلَةً صَدُّ الْمَلُولِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ

فقال فوز: يا عباس ظن خيرا فرما كانت لا تستطيع لقاءك ولا أن تبادلك حبا بحب، فقال على الفور:

تَمَنَّى رِجَالٌ مَا أَحْبَبُوا وَإِنَّمَا تَمَنَيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْهَا وَتَسْمَعَا
أَرَى كُلَّ مَعْشُوقِينَ غَيْرِي وَغَيْرَهَا قَدْ اسْتَعَذَبَا طَوْلَ الْهَوَى وَتَمَتَّعَا

فقالت: أبلغك الله أمنيتك يا عباس. وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله.

أرق على أرق

أصبح العباس كلنا بفوز لا يفارق مجلسها ومجلس سيدها، واشتد به كلفه
فكان يبيت الليل مسهدا لا يغمض له جفن وطال عليه ذلك فأنشد:

قفنا خبرانى أيها الرجلان عن النوم إن الهجر عنه نهانى
وكيف يكون النوم أو كيف طعمته صيفا النوم لى إن كنتما تصفان

وشكا إلى بعض أصحابه أنه لا ينام، فتغامزوا عليه، وقالوا: محب هائم، دع
الحب يأتك النوم، وأمسى لا يلم به النعاس، فأنشد:

لما رأيت الليل سدَّ طريقه عني وعدّبنى الظلامُ الراكدُ
والنجمُ فى كبد السماء كأنه أغمى تحيّر ما لديه قائدُ
ناديت من طرد الرقاد بصدّه عما أعالج وهو خلوّ هاجدُ
ياذا الذى صدع الفؤاد بهجره أنت البلاء طريفه والتالدُ
ألقيت بين جفون عيني حرقة فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقدُ

وأرسل إليها هذه الأبيات فى رقعة وذيلها بقوله

وسعى بها ناسٌ فقالوا إنها لهى التى تشقى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إنى ليعجبني الحُب الجاحدُ

ولما وقفت على الرقعة قالت للرسول: لقد بلغنى عنه أشعاراً يتغزل فيها
باسمى، كأنه يريد أن يفضحنى عند سيدي، وإننى لا أستطيع أن ألقاه بعد
تشهيره بى، ولما عرف جوابها أنشد:

لعمرك ما يستريح الحُـبُّ حتى ييوح بأسراره
وقد يكتنم المرءُ أسراره فتظهر فى بعض أشعاره

لقاء

ودخل العباس يوماً على محمد بن المنصور وفوز بين يديه ومعه حضور
كثيرون، فقال له محمد: أنشد بعض ما قلت من غزلك يا عباس فإن غزلك رقيق
يأخذ بمجامع القلوب، فأنشد:

أناذنون لصباً في زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ
لا يضر السوءَ إن طال الجلوسُ به عَفُ الضميرِ ولكن فاسقُ النظرِ

فلم يبق أحد في المجلس إلا طرب، وتعجب من حسن ما يأتي به من معان، وقال
له محمد: زدنا مما قلت، حيّاك الله، فقال:

راجعُ أحبّك الذين هجرتهم إن المُتيمَ قلماً يتجنّبُ
إن التجنّب إن تطاول منكما دبّ السلو له فعزّ المطلب

فتبسّمت له فوز، وقال السامعون: أحسنت والله درك، وماذا بعد، فأنشد:

الحب أول ما يكون لجانحة تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لجح الهوى جاءت أمورٌ لا تُطاقُ كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعير عينا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرايتَ عينا للبكاء تُعار

فلم يبق أحد من الحاضرين إلا قال له: أنا أعيرك عيني، حاطك الله وحفظك،
ونظر إلى فوز فغضت طرفها وخجلت، فأنشد:

قلبي إلى ما ضرّني داعي يُكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتزاسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي
أسلمني للحبّ أشياءعي لما سعى بي عندها الساعي
إن دام لي هجرك يا مالكي أوشك أن ينعاني الناعي

زيارة

رقت فوز للعباس فواعده في ليلة كان سيدها فيها غائبا، ولم يكذ يصدق
عينيه حين رآها، فوثب إليها وسلم عليها، وجلست فقالت له:

لا بد للعاشق من وقفة	تكون بين الوصل والصرم
يعتب أحيانا وفي عتبه	إظهار ما يخفى من السقم
إشفاقه داع إلى ظنه	وظنه داع إلى الظلم
حتى إذا ما مضه هجره	راجع من يهوى على رغم

ثم أردفت: إنى إنما صددت عنك، لما كنت أرى من عبرات تترقق في عينك،
وأخشى أن يعرف أمرك محمد بن المنصور، فيمنعك من لقائي، فأنشد:

لا جزى الله دمعَ عيني خيرا	وجزى الله كل خير لسانی
ثم دمعى فليس يكتم شيئا	ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي	فاستدلوا عليه بالعنوان

ومكثت قليلا، ثم استأذنت فى الانصراف، فأذن لها على مضض وهو ينشد:

وإنى ليرضينى قليل نوالكم	وإن كنت لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بينى وبينكم	من الوصل إلا غدثم بجميل

مكاتبة

وغابت عنه مدة لم يرها فيها، فهاج بلبائه، وزادت به أشجانته، فكتب إليها
رقعة، يقول فيها:

نام من أهلى لى الأرقا	مستريحا زادنى قلنا
لو يبيت الناس كلهم	بسهادى بيض الحدقا

كان لي قلبٌ أعيش به فاصطلي بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

فلما قرأت الرسالة قالت للرسول: لقد ظلمنا العباس، وإنى لزائرته، وضربت موعدا للاقائه.

موعد

ظل العباس ينتظر فوزا، وكانت قد تأخرت بعض الوقت، فداخلته الوسواس وهجمت عليه الهواجس وظن أنها لن توافيه، فبكى وأنشد:

أحرمٌ منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرتُ كأنى ذبالةٌ نصبت تضيئُ للناس وهى تحترقُ

ولم تمض إلا برهة يسيرة حتى أقبلت، فقالت له: معذرة إنى تأخرت لشغل عرض، ولم يكن لي طاقة بتأخيرته، ثم أقبلت عليه، وقالت له: أنشدنى بربك آخر ما نظمته فى، فأنشد:

إن قال لم يفعل وإن سبيل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتب
صبٌ بعصيانى ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكور رب ما حل بي من صد هذا المذنب المغضب

فقالت لا عليك، والله ما أتأخر عنك من صد ولا هجر، إنما هو الشغل يحول بينى وبين لقائك وكلامك الحبيب إلى نفسى، فقال:

تعتلُ بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

فقالت: أتظننى أملك أمرى، إذن ما فارقتك، ولا وجدت فى نفسى هذا النقص لعدم لقياك، وتشاكيا الهوى ثم قامت، فمضت.

مرض فوز

وجّه العباس رسولا إلى فوز، فعاد فأخبره أنها تجده صداعا وأنه رآها معصوبة الرأس، فأخذه الوجد بها ، وتمنى لو نقل الداء إلى رأسه فداء لها وأنشد:

عصبتُ رأسها فليت صداعا قد شكته إلىّ كان براسي
ثم لا تشتكى وكان لها الأجرُ و كنتُ السقامَ عنها أقاسي
ذاك حتى يقول لي من رأني هكذا يفعل المحبُّ المواسي

وبرئت مما ألم بها من مرض، ثم نكست وبلغه ما صارت إليه من النكس فقال:

إن التي هامت بها النفسُ عاودها من عارض نكسُ
كانت إذا ما جاءها المُبتلى أبرأه من كفّها اللمسُ
و أبأى الوجه المليح الذي قد عشقته الجن والإنس
إن تكن الحمى أضرتُ به فربما تنكسفُ الشمسُ

شفاعة

وكان في خلق العباس شدة فضرب غلاما له وحلف لبيعه، فمضى الغلام إلى فوز، فاستشفع بها إليه، فكتبت إليه فيه، فقال:

يا من أتانا بالشفاعاتِ من عند مَنْ فيه لجاجاتي
إن كنت مولاك فإن التي قد شفعت فيك لمولاتي
إرسالها فيك إلينا لنا كرامةٌ فوق الكرامات

ورضى عنه ووصله وأعتقه.

لقاء ووداع

مضت مدة طويلة لا تلتقى فيها فوز بعباس، فقلق وجزع وظن أنها قد

هجرته، فكتب إليها رسالة يقول فيها:

يا فوز يا منية عباسٍ واحربا من قلبك القاسى
أسأت أن أحسنتُ ظنِّي بكمٍ والحزم سوء الظن بالناس
يقلقنى الشوق قَاتِيكُمْ والقلب مملوءٌ من الياس

فقال للرسول: إن الفرصة لا تواتيني، فعاد إليه وأخبره بما قالت، فكتب رسالة أخرى، يتفجع فيها على وصلها ويقول:

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا
كلما أغلقتُ من الوصل بابا فتحتُ لى إلى المنية بابا
عديني بكل شيء سوى الصلِّدِّ فما ذقت كالصدود عذابا

ولما قرأت الأبيات رقت له وقالت للرسول: إنى زائرة له فى يوم كذا. وجاءت، فوثب إليها وجثا عند قدميها، يشكو تباريح حبه، فأمسكت برأسه ووضعت يدها على صدره، وقالت: ليتنى كنت لك، وبكت وبكى معها وأنشد:

ما أنس لا أنس يمناها معطفةً على فؤادى ويسراها على راسى
وقولها: ليته ثوبٌ على جسدى أو ليتنى كنت سربالا لعباس
أو ليته كان لى حمرا وكنت له من ماء مُزَنٍ فكنا الدهرَ فى كاس

وأقبلت عليه، فقالت له إن سيدى قد عزم على الحج، وسيأخذنى معه، فاستودعك الله، وقامت، فمضت لوجهها.

فوز تحج

أخذ العباس يرقب خروج فوز لعله يراها وهى راحلة إلى حج بيت الله الحرام، ورأى راحلتها تعدو، وهى خارجة إليها فبكى وأنشد:

يا ربُّ رُدُّ علينا من كان أنساً وزِينَا
من لا نُسرُّ بعيشٍ حتى يكون لدينا

وغابت فوز عن عينيه، فجزع جزعا شديدا ومضى يسأل عن حجاج آخرين
يحملهم إليها رسالة له، ووجد بعض من يعرفه معتزما على أداء الفريضة، فكتب
إليها:

أزَيْنَ نساء العالمين أجيبى	دعاءً مشوق بالعراق غريب
كُتبت كتابى ما أقيم حروفه	لشدة إعوالى وطول نحيبى
أخطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرة	تسحُّ على القرطاس سحَّ ذنوب
أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى	لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنتِ من الدنيا نصيبى فإن أمت	فليتك من حور الجنان نصيبى
وانى لأستهدى الرياح سلامكم	إذا أقبلتُ من نحوكم بهبوب
وأسالها حملَ السلام إليكم	فإن هى يوما بلَّغتُ فأجيبى
أرى البين يشكوه المحبون كلهم	فياربُّ قَرُبُ دارَ كل حبيب

وقدمت فوز من الحج وعلم عباس فأخذ ينشد فرحا مسرورا:

ألا قد قدمت فوز فقرتُ عينُ عباس
لمن بشرنى البشرى على العينين والراس

مغاضبة

ظل عباس ينتظر من فوز موعدا تضربه له بعد عودتها من الحج، ولكنها
كانت انصرفت عنه إلى بعض شباب الجند، فكتب إليها:

أبكى الذين أذاقونى مودتهم حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

فلم ترد عليه ولا منته وعلدا. وطال جفاؤها له، وعرف أنها أحبت سواه، فعزم على تركها، ثم راجعته نفسه، فكتب إليها يتوسل ويقول: الإدلال يدعو إلى الإملال، ورب حب انقلب إلى كره وهجر، وقال:

ما أراني إلا ساهجر من ليس يراني أقوى على الهجران
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ما أضرَّ الوفاء بالإنسان

فقالت للرسول: إنه تغير لما يسمع من قول الوشاة، وإنه يذكرني بالسوء وأنى أحببت فتى من فتیان الجند، وهذا شأنى وحدى، فإن أحب أن يختلف إلى مجلس سيدى فليفعل، فلما سمع ذلك بكى وكتب إليها:

كتبتُ تلوم وتسرُّدُ مودتى وتقول لستَ لنا كعهده العاهدِ
فأجبتها ودموع عيني جمَّة تجرى على الخدين غير جوامدِ
يا فوز لم أهجركمُ لملاية منى ولا لمقال واش حاسدِ
لكننى جرَّبتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعامٍ واحدِ

وقمادى بينهما الهجر.

موت العباس

وظل العباس يندب حبه حتى أضناه، فخرج مع غلام له إلى بعض الرياض، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه وهو متهالك ضعفاً، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنة مفردا يبكى على شجته
كلما جدَّ البكاء به دبَّت الأسقامُ فى بدنه

ثم أغمى عليه، فأقبل طائر فوق على شجرة، وجعل يغرد ففتح عينيه، ثم أنشأ يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجاً طائرٌ يبكى على فَنِّه
شفه ما شفني فبكي كلنا يبكي على سَكْنِه

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه، فحملته غلامه إلى منزله، وخرج
الجواري يبكين عليه ويندبونه وبكاه أصدقاؤه ورفاقه أحراراً بكاءً.



Guida.

1. Edition of the original 'H' ... (GOAL
2.



المؤلف الدكتور شوقي ضيف

رئيس مجمع اللغة العربية وأستاذ الأدب العربي
المعروف بكتساباته القيمة في كافة فنون الأدب
واللغة والنقد والبلاغة.

هذا الكتاب

الكتاب يؤرخ لموضوع الحب العذري عند العرب
مع مختارات من قصصه الذائعة الصيت
من أمثال قيس وليلى وجميل وبثينة
ويعرض محتويات الكتاب ما يلي :

الحب - الحب العذري - مجنون ليلى - جميل وبثينة
قيس بن ذريح والسبتى - عروة بن حزام وعفراء
كثير وعزة - توبة وليلى الأخيلية - الصمة وريا
مالك وظريفنة - ابن أبي عمير الناسك وسلامة
ذو الرمة وميعة - العباس بن الأحنف وفوز

708

43

ض